الفصل الثاني

نشأة التطرف الفكري

قبل أن نتناول نشأة التطرف الفكري، جدير بنا أن نتساءل بدايةً من الذي يحق له أن يقول بأن هذا تطرفًا فكريًا أو لا؟ هل الكل متطرف فكريًا من وجهة نظر الكل؟ هل يوجد معيار محدد وثابت يصف ما التطرف الفكري؟ ومَنْ المتطرف فكريًا؟ وما اللا تطرف الفكري؟ ومن اللا متطرف فكريًا؟ هل التطرف الفكري أمر نسبي أو مطلق؟ وهل يوجد قاسم مشرك بين البشر جميعًا ضد التطرف الفكري؟ هل التطرف الفكري معنى فضفاض؟.

لا غرو، أنه عند الإجابة عن هذه التساؤلات تواجهنا مشكلة في غاية الخطورة؛ ألا وهي أن لكل مجتمع، سواء على المستوى المحلي أو الدولي، فكره الذي يميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى. وبالتالي، ألَمْ يكن من الصعوبة بمكان الحكم على التطرف الفكري في عمومه وشموله؟! وهذا ما يجعلنا نبدأ بالتساؤل الأول حتى نُقدِّم إجابة له، وهو مَنْ المنوط به وصف بعض الأشخاص أو الجماعات أو المجتمعات أو الدول بأنها متطرفة فكريًا أو لا؟

في الحقيقة، إذا كان لكل مجتمع فكره الخاص به والذي ينبع من دينه وعاداته وتقاليده وسلوكياته، ومن ثمَّ، يستطيع هذا المجتمع أو الضمير الجمعي أن يحكم على هؤلاء الكثرة من أفراده بأنهم ملتزمون، في الوقت نفسه الذي يَحكُمُ فيه على أولئك القِلَّة الذين مرقوا بل وانسلخوا عن مجتمعهم وعاداتهم وتقاليدهم، وإن شئت فقل: تمردوا على كل ذلك، بأنهم متطرفون.

أما إذا خرجنا من هذا الإطار المجتمعي الضيق والذي ينحصر في مجتمع بعينه، إلى حيز المجتمعات المتعددة والمختلفة، أو بعبارة أخرى إذا ما انتقلنا من النطاق المحلي إلى المجال الدولي الواسع، فمن ذاك إذًا الذي يُخوَّل له الحكم على هذه المجتمعات جميعها بأنها سوية أو متطرفة في مجملها؟!! وهنا يمكننا الإجابة عن التساؤل الثاني وهو: هل الكل متطرف فكريًا من وجهة نظر الكل؟!

رغم علمنا التام أن سؤالاً كهذا يكون مصدر إزعاج، بل وصعوبة إلى حد كبير، إلا أننا بلا شك، نستطيع أن نُقرر أن المجتمعات في أنظمتها، ودساتيرها، وعاداتها، وتقاليدها، ليست صورة واحدة أو نسخة متكررة على مدار الزمان والمكان، وإنما تختلف وتتعدد، ليس من عصر لآخر وإنما من مكان لآخر في العصر ذاته.

وبهذا يمكن لكل مجتمع من المجتمعات أن ينظر لغيره على أنه متطرف؛ فالشرقي يرى أن الغربي متطرف والغربي ينظر للشرقي على أنه الأكثر تطرفًا من غيره، وبالمثل بالنسبة لأصحاب الديانات والمعتقدات. من هنا تكون إجابتنا عن التساؤل الأخير، نعم الكل متطرف من وجهة نظر الكل.

ولكن هل هذا الحكم يكون بشكل نسبي أو مطلق؟

قد تحكم بعض المجتمعات على غيرها أنها متطرفة فكريًا، في الوقت نفسه الذي تضع فيه هذه المجتمعات غيرها موضع الاتهام نفسه بأنه هو المتطرف فكريًا، وعلى هذا يكون الحكم نسبيًا يختلف من مجتمع لآخر ومن عصر لآخر. والكل يحكم بناءً على المنطلقات الفكرية التي ينطلق منها. وهل هذا يعني أنه لا يوجد قاسم مشرك بين البشر جميعًا ضد ماهية التطرف الفكري وهويته؟

في الحقيقة، فإنه رغم اختلاف كل مجتمع عن قرينه، وكل عصره عن غيره، إلا أنهم يتفقون جميعًا حول المبادئ الأخلاقية العامة مثل: مبدأ تحريم القتل بغير وجه حق، وإن كانوا يختلفون بشأن السلوك الأخلاقي وهو نسبي يختلف من بيئة لأخرى ومن مجتمع وعصر لأخر. وبهذا يكون الجميع ضد التطرف الفكري بكل صوره، وإن كانوا يختلفون حول ماهيته وتعريفه.

وعلى هذا يمكننا القول: إنه توجد هوية أخلاقية عالمية مشتركة بين الوجود الإنساني عامةً وهي ما يمكنني أن أطلق عليها أخلاق الفطرة الإنسانية السليمة التي ترفض مثلاً، القتل، والاغتصاب، والسرقة، والكذب، والخداع، والخيانة...الخ، في الوقت نفسه، التي تُحبذ فيه القصاص، والصدق، والأمانة...الخ .

على الرغم من ذلك، إلا أنه توجد هويات أخلاقية متعددة في الآن ذاته؛ فكل أصحاب دين أو شريعة أو مذهب لهم أخلاقهم الخاصة التي تميزهم عن غيرهم؛ فأنصار الدين الإسلامي لهم هويتهم المتميزة، والشيء نفسه بالنسبة لأتباع الدين اليهودي والمسيحي وكذلك بالنسبة لأصحاب المذاهب الفكرية المختلفة[١].

ولم يكن تبني- الباحث- لفكرة الأخلاق العالمية التي تنبذ التطرف قلبًا وقالبًا وليد المصادفة، وإنما جاءت هذه الفكرة بناءً على إيمان ديني يتمثل في الأخلاق الإسلامية بوصفها أخلاق دين عالمي لا يصلح الزمان والمكان إلا بها، لأنها تتفق وصاحب العقل السليم والفطرة السوية، ناهيك عن أن هذا الإيمان الديني يدعمه أيضًا الإيمان العقلي أو الفلسفي المحض.

---

١) جميل أبو العباس زكير: الهوية الأخلاقية بين الإطلاق والنسبية، رؤية فلسفية، بحث منشور في مجلة المؤتمر الدولي الثالث والثلاثين (الهوية في عالم متغير) في الفترة من ١٦-١٨ مارس ٢٠١٥م، ص ص ٣٩٠: ٣٩٥.

وقد دعا لهذه الأخلاق العالمية، التي ترفض التطرف الفكري بكل صوره، العديد من المفكرين والدعاة والفلاسفة على مر العصور، وإن كانت هذه الدعوات المتعددة قد اتخذت طابع العلانية تارةً، وطابع الضمنية في تارات أخرى.

وفي هذا، يقول «هانس كينغ»[١]: «فمنذ كانت المجتمعات الإنسانية، طُوّرت أفكارٌ وممارساتٌ بشأن كيفيات الوصول إلى تأمين الحياة الطيبة والمزدهرة للمجتمع وللأفراد. وقد طُوّرت مقاييس أخلاقية أساسية في كل الثقافات. وقد ظهرت تلك المقاييس في الديانات والفلسفات، وتكونتْ لها أنظمةٌ وترتيبات. لكنْ في زمان التعددية هذا لا يستطيع دينٌ بمفرده[٢] أو فلسفة أو أيديولوجيا أن يُشرِّع أخلاقًا أو نظامًا أخلاقيًا لكل المجتمعات.

ولذا يكون من المهم أن نكتشف المشتركات والأمور العامة في الديانات المختلفة والفلسفات المتعددة، وأن ندفع الناس للوعْي بذلك: بالنسبة للأفراد لتحديد الاتجاه، وبالنسبة للمجتمع لإيجاد أوامر التماسك، وبالنسبة للأمم والجماعات الدينية من أجل تأصيل الفهم والتعاون والسلام. وعلى أساس هذه المبادئ الأخلاقية العامة، التي نسّميها أخلاقًا عالميةً إيجازًا، يستطيع الناس والأمم والثقافات العيش معًا والعمل معًا من أجل عالمٍ أكثر عدالةً وأمنًا»[٣].

وعلى هذا نستطيع أن نؤكد أنه توجد هوية أخلاقية مطلقة أو عالمية تنطبق على جميع البشر في كل زمان ومكان، ترفض التطرف الفكري جملة وتفصيلاً، وبمعنى آخر يوجد اتفاق أخلاقي كبير عبر مختلف المجتمعات يُقرر عدة مبادئ أخلاقية منها، على سبيل المثال لا الحصر.

تلك القاعدة الأخلاقية الذهبية التي تقول: «عامل الناس بما تحب أن يُعاملوك به»، وغيرها من المبادئ مثل: لا تقتل، لا تسرق، لا تزني. وقد أشارت الحركة العالمية لحقوق الإنسان إلى الاتفاق حول العديد من المبادئ الأخلاقية المشتركة بين بني البشر جميعًا. وقد كان من بين أنصارها: «سيسلا بوك Sissela Bok» و «مايكل والزرMichael Walzer» اللذان اقترحا وجود بعضًا من الأخلاق العالمية، على الرغم من الخلافات الأخلاقية الأخرى»[٤].

---

١) هانس كينغ: (١٩ مارس ١٩٢٨م-.....) فيلسوف ومفكر سويسري، جامعة توبنجن، ألمانيا.

٢) هنا يُنكر «كينج» على الأديان جميعًا فكرة الأخلاق العالمية، وربما يرجع ذلك لجهله بالدين الإسلامي؛ دين الأخلاق العالمية، أو أنه يعرفها ولكن عصبيته لما يؤمن به حالت بينه وبين الإنصاف لمن يخالفه الرأي حتى وإن كان غيره قد جاء بما يؤمن به.

٣) هانس كينج: لماذا الأخلاق العالمية كسبيل مشترك بين الإنسانية، مقال في مجلة التسامح، العدد ١٨، ٢٠٠٧م، تم الدخول م٢/٤/٢٠١٥.http://tasamoh.om/index.php/nums/view/٢١/٤٠٣

٤) ptth://: /sevihcra /ude.drofnats.otalp /٢١٠٢rps /seirtne /msivitaler-larom /#loTleR.

وفي عالمنا العربي المعاصر، يعد "طه عبد الرحمن"[١] من القلائل الذين قدموا، نموذجًا فريدًا للأخلاق العالمية. لذا فإن مشروع الأخلاق العالمية يطرح المجموعة السائدة من القيم الإنسانية لحقوق الإنسان والمجتمع المدني: «المسالمة» و «التضامن» و «التسامح» و «المساواة».

وهذه الأربع نراها مشتركة بين المفاهيم الحقوقية في العصر الحالي، دينية كانت أو علمانية؛ ولكنَّ مؤسسي المشروع لم يتوقفوا عند هذا الحدَّ، بل تجاهلوا حتى المبادئ الأساسية التي تدخل في صلب مشروعهم: كالإيمان والعمل الديني.

كما أن رغبتهم في محاولة كسب رضا الجمهور العلماني- وذلك بمحاولة احتوائهم فرضيات العلمانية المبدئية- وهي: تخصيص الدين، ونسبية الحقيقة، وسطوة العقلانية- قد أودت بهم إلى محاولات جانحة لاستيعاب تلك المبادئ، وهذا الأسلوب في استيعاب تلك الأفكار يهمش فعليًا أية مساهمة ملموسة من ديانات العالم في هذه المعادلة.

ومن ثمَّ، وفقًا لتحليل «طه عبد الرحمن» فإن أي تصور لأخلاق عالمية مشتركة ينبغي أن تتبناها ديانات العالم المختلفة، لا بد من توفر شرطين فيه:

أولاً: يجب على هذا المشروع أن يضمن دورًا فعالاً للدين في المجتمع.

ثانيًا: يجب أن يقوم بتوسيع مجال الأخلاقيات بعينها، بالإضافة إلى هذا فإنه يجب على مشروع مشترك حتى يكون ناجحًا أن يضع نصب عينيه مجموعة معينة من المعايير من أجل تحقيق هدف تجسيد مساهمة دينية على وجه الخصوص نحو الوعي الأخلاقي للمجتمع الدولي الموسع، ومن هذه المعايير أن يقوم هذا المشروع على أساس الإحاطة بالربط بين الانتماء الديني والسلوك الأخلاقي، وعلاوة على ذلك يجب أن يكون متجاوبًا مع توجيهاته الأخلاقية، كما يجب عليه أن يُسهم في تطوير مضمون الأخلاقيات ذاتها[٢].

أما عن الأخلاق العالمية من وجهة نظر «طه عبد الرحمن» فينبغي أن توصف بأنها، أولاً: أخلاق ذات طبيعة عملية؛ إذ تستقرأ من التجربة الأخلاقية الحية للإنسان، ثانيًا: أخلاق ذات مصادر متعددة؛ حيث تشترك أطراف كثيرة في تحديد قواعدها وأحكامها، وثالثًا: أخلاق ذات توجه ديني؛ إذ أنها تستقي قيمتها ومبادئها من الأديان المختلفة[٣].

١) طه عبد الرحمن:((.....-١٩٤٤، فيلسوف مغربي، متخصص في المنطق وفلسفة اللغة والأخلاق، ويعد أحد أبرز الفلاسفة والمفكرين في مجال التداول الإسلامي العربي منذ بداية السبعينيات من القرن العشرين.

٢) طه عبد الرحمن: الأخلاق العالمية: مداها وحدودها، مقدمة: ج. هاشم براون، مدير الأبحاث، سلسلة ورقات طابة، العدد ١، يونيو ٢٠٠٨م، ص ٦.

٣) المرجع نفسه، ص ٩.

وهنا يتفق -الباحث- وما ذهب إليه «طه عبد الرحمن»، لأنه لا وجود لأخلاق عالمية ذات قاسم مشترك بين بني البشر إلا بالرجوع للأسس الفطرية السليمة كالتي هي جزء أصيل من الدين الإسلامي الحنيف.

مما سبق، نستطيع أن نقرر أنه توجد هوية أخلاقية عالمية، ضد التطرف الفكري، ينبغي أن يخضع لها الجميع، في الوقت نفسه الذي لا يكون أمرًا إلزاميًا أن ينسلخ كل أصحاب دين أو مذهب أو معتقد عن هوياتهم الخاصة. بمعنى؛ اعتماد الكل على الكل-هوية عالمية مشتركة- في الوقت نفسه الذي ينبغي أن يستقل فيه الكل عن الكل- الاحتفاظ بالهوية الخاصة- أيضًا.

وإذا كانت الهوية الإسلامية هوية عالمية لذا ينبغي على الجميع أن يستجيب لها طالما أنها لا تهدد هويته الخاصة، بل والأكثر من ذلك أنها تعمل على المحافظة عليها. وهذا ما لمسناه في تاريخ الحضارة الإسلامية؛ حين فتح المسلمون بلاد الشرق والغرب ولم يتعرضوا بالأذى، ولا بالظلم لأصحاب الديانات الأخرى، وأكبر شاهد على ذلك فتح مصر، حيث حافظ الإسلام على المعابد والكنائس وترك كل أصحاب معتقد على معتقدهم.

من كل هذا، لا يكون معنى التطرف الفكري فضفاضًا، وإنما له دلالات واضحة يرفضها الجميع، وفي الوقت ذاته يكون الإنسان غير المتطرف فكريًا إنسانًا سويًّا يستقيم والحياة، والعادات، والتقاليد الاجتماعية في بلده وعصره.

وللتدليل على ما سبق يمكننا أن نعرض لبعض النماذج المتطرفة فكريًا على مدار التاريخ الإنساني والتي منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- تطرف إبليس الفكري:

يعتقد الكثير من الناس أن إبليس هو أول المخلوقات تطرفًا، فقد انحرف عن المسار الحق الذي أمره الله سبحانه وتعالى به، وذلك حين اعتمد على عقله من دون الله فضلَّ وأضلَّ.

ولكن حقيقة الأمر، أنه كانت هناك مخلوقات أخرى-قيل أنها من الجن- قبل إبليس (عليه لعنة الله) وقبل آدم (عليه السلام)، عاشوا على الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا عليها الدماء وذلك بسبب تطرفهم وبعدهم عن المنهج الرباني الذي أمرهم الله به. ودليل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ**

لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠:٣٤]

ولكن كيف عرفت الملائكة أن الخليفة الجديد في الأرض سيتطرف وبالتالي سيفسد فيها ويسفك الدماء ؟

اختلف في ذلك أهل العلم على أقوال :

القول الأول:أنهم علموا ذلك بإعلام الله تعالى لهم، وإن كان ذلك لم يُذكر في السياق.قاله «ابن مسعود»، و «ابن عباس»، و «الحسن»، و «مجاهد»، و «قتادة»، و «ابن زيد»، و «ابن قتيبة. وهو قول أكثر المفسرين كما قاله ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٨٢) [١].

يقول ابن القيم رحمه الله:»وفي هذا دلالة على أن الله قد كان أعلمهم أن بني آدم سيفسدون في الأرض ، وإلا فكيف كانوا يقولون ما لا يعلمون، والله تعالى يقول وقوله الحق: **﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾** [سورة الأنبياء: ٢٧]، والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير، قال الله تعالى: **﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** [سورة التحريم: ٦][٢].

القول الثاني: أنهم قاسوه على أحوال من سلف قبل آدم على الأرض، وهم الجن ، فقد سبقوا الإنسان في الأرض وكانوا يفسدون فيها ويسفكون الدماء، فعلمت الملائكة أن البشر سيكونون على حال من سبقهم.روي نحو هذا عن ابن عباس وأبي العالية ومقاتل. وقيل أنهم قالوه لاستعلام وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض، ذكره الزجاج[٣].

يقول الشيخ «ابن عثيمين – رحمه الله: «قول الملائكة: **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾** [سورة البقرة: ٣٠] يرجِّحُ أنهم خليفة لمن سبقهم، وأنه كان على الأرض مخلوقات قبل ذلك تسفك الدماء وتفسدفيها، فسألت الملائكة ربها عزَّ وجلَّ **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾** كما فعل من قبلهم[٤].

١) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، الطبعة الأولى، بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٢، ص ٥٣.

٢) محمد صالح المنجد: موقع الإسلام سؤال وجواب، تم الدخول ١٢/ ٤/ ٢٠١٥:
- http://islamqa.info/ar/128573.

انظر: ابن القيم: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق عبد الرحمن ن حسن بن قائد، جدة، مجمع الفقه الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ،(١/ ١٢).

٣) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، ص ٥٣.

٤) محمد صالح المنجد: موقع الإسلام سؤال وجواب.

انظر: ابن عثيمين: تفسير القرآن الكريم، (سورة البقرة الآية ٣٠).

القول الثالث: أنهم فهموا ذلك من الطبيعة البشرية. وهو الذي يبدو من اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «منهاج السنة» (٦/ ١٤٩).

يقول العلامة الطاهر ابن عاشور: «وإنما ظنوا هذا الظن بهذا المخلوق من جهة ما استشعروه من صفات هذا المخلوق المستخلف، بإدراكهم النوراني لهيئة تكوينه الجسدية، والعقلية، والنطقية، إما بوصف الله لهم هذا الخليفة، أو برؤيتهم صورة تركيبه قبل نفخ الروح فيه وبعده، والأظهر أنهم رأوه بعد نفخ الروح فيه، فعلموا أنه تركيب يستطيع صاحبه أن يخرج عن الجبلة إلى الاكتساب، وعن الامتثال إلى العصيان... ومجرد مشاهدة الملائكة لهذا المخلوق العجيب المراد جعله خليفة في الأرض كافٍ في إحاطتهم بما يشتمل عليه من عجائب الصفات».

قال: وفي هذا ما يغنيك عما تكلف له بعض المفسرين من وجه اطلاع الملائكة على صات الإنسان قبل بدوها منه[١].

القول الرابع: أنهم فهموا من قوله تعالى (خليفة) أنه الذي يفصل بين ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم. والمعنى أنه إذا كان هناك خليفة يحكم بين الناس في المظالم، فإنه يلزم من ذلك أن هؤلاء الناس تقع منهم المظالم[٢].

رغم كل هذا، إلا أنه الثابت عند جمهور المفسرين وجود مخلوقات سبقت «آدم» عليه السلام، انحرفت وتطرفت ففسدت وعصت ربها. وقد خلف هؤلاء في تطرفهم إبليس، وفي ذلك يقول أبو الفرج رحمه الله: «وينبغي أن تعلم أن إبليس الذي شغله التلبيس أول ما التبس عليه الأمر فأعرض عن النص الصريح على السجود فأخذ يُفاضل بين الأصول فقال: ﴿**خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ [سورة ص: ٧٦]، ثم أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم فقال: ﴿**أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ**﴾ [سورة الإسراء: ٦٢]، والمعنى أخبرني لم كرمته عليَّ، غرر ذلك الاعتراض أن الذي فعلته ليس بحكمة ثم اتبع ذلك بالكبر فقال: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ**﴾ [سورة ص: ٧٦]، ثم امتنع عن السجود فأهان نفسه التي أراد تعظيمها باللعنة والعقاب[٣].

---

١) محمد صالح المنجد: موقع الإسلام سؤال وجواب.، انظر: محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، المجلد الأول، ص ٢٣٠.

٢) نفسه، انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم (١/ ٣٠٢)، وانظر أيضًا: تفسير ابن كثير (١/ ٦٩).

٣) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، تحقيق، حامد أحمد الطاهر، القاهرة، دار الفجر للتراث، الطبعة الأولى،٢٠٠٤، ص ص ٢٩، ٣٠.

٢- التطرف الفكري منذ هبوط آدم للأرض قابيل، النمرود، فرعون.....الخ:

أ- تطرف قابيل الفكري

لا أحد يستطيع أن يُنكر أن فكرة الدعوة للسلام بشكل عام؛ أي السلام على المستوى الداخلي والمستوى الخارجي، لم تكن وليدة العصر الحديث أو المعاصر، وإنما لها جذورٌ متأصلةٌ منذ فجر التاريخ- وإن شئت فقل منذ بدء الخليقة- فقد كانت دعوة «آدم» عليه السلام دعوة سلام للإنسانية جمعاء، وكذلك دعوة مَن جاء بعده مِن الأنبياء والمرسلين جميعًا.

على النقيض من السلام تكون الحرب التي هي واحدة من صور التطرف الفكري في أوج مراحله، فقد كانت أول دعوة للتطرف الفكري، والعنف، والإرهاب، والقتل في أبشع صورة لها؛ من حيث الظهور على أيديِّ ابني آدم عليه السلام، وبالأخص على يد «قابيل» ذاك الذي سنَّ أول جريمة قتل عرفتها البشرية وذلك حين قام بقتل أخيه «هابيل».

وقد أورد الإمام «الحافظ بن كثير» لقصة قابيل وهابيل في كتابه «قصص الأنبياء» على النحو التالي: إذ يقول (رحمه الله): قال الله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**﴾ [سورة المائدة: ٢٧:٣١].

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك:

فلقد ذكر السُّدِّي عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عبَّاس، وعن مُرَّة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة، أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى «البطن» الآخر وأن هابيل أراد أن يتزوَّج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل، وأخت قابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قربانًا، وذهب آدم ليحج إلى مكة، واستحفظ السماوات على بنيه فأبين، والأرضين والجبال فأبين، فتقبل قابيل بحفظ ذلك.فلما ذهب قربا قربانهما؛ فقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين[١].

١) ابن كثير: قصص الأنبياء، تحقيق، عبد الحي الفرماوي، الطبعة الخامسة، القاهرة، دار الطباعة والنشر الإسلامية، ١٩٩٧، ص ٦٢.

وروي عن ابن عبَّاس من وجوه أخر، وعن عبد الله بن عمرو، وقال عبد الله بن عمرو: وأيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده!.

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشرًا لتقريبهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي. وتوعد أخاه فيما بينه وبينه. فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي، فبعث آدم قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به، فقال له: تُقُبِّل منك ولم يُتَقبَّل مني. فقال: إنما يتقبل الله من المتقين. فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله. وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته. وقيل: بل خنقه خنقًا شديدًا وعضه كما تفعل السباع فمات. والله أعلم[1].

وقوله له لما توعده بالقتل: ﴿**لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ دل على خلق حسن، وخوف من الله تعالى وخشية منه، وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت في "الصحيحين" عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قالوا يا رسول الله: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»[2].

وقوله: ﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**﴾ أي إني أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى، إذ قد عزمت على ما عزمت عليه، أن تبوء بإثمي وإثمك، أي تتحمل إثم مقاتلتي مع ما لك من الأثام المتقدمة قبل ذلك. قاله مجاهد والسُّدِّي وابن جرير وغير واحد[3].

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي، عن سعد بن أبي وقاص، أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:»إنها ستكون فتنة؛ القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي« قال: أفرأيت إن دخل علىَّ بيتيِّ فبسط يده إليَّ ليقتلني. قال:»كن كابن آدم«. ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعًا: »كن كخير ابني آدم«. وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا[4].

---

١) ابن كثير: قصص الأنبياء، ص ٦٣.

٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب: إذا التقى المسلمان بسيفيهما، وصحيح مسلم كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما.

٣) ابن كثير: قصص الأنبياء،ص ص٦٣، ٦٤.

٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ٣٦، ٣٨.

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد: حَدَّثَنا أبو معاوية ووكيع، قالا: قال حَدَّثَنا الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن ابن مسعود، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:»لا تقتل نفسًا ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل«[1]. ورواه الجماعة سوى أبي داود من حديث الأعمش به. وهكذا روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وإبراهيم النخعي أنهما قالا مثل هذا سواء[2].

وقوله تعالى: ﴿**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**﴾. ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة، وقال آخرون حمله مائة سنة، ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين.

قال السُّدِّي بإسناده عن الصحابة: أخوين، فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه، فلما رآه يصنع ذلك: ﴿**قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي**﴾ ؟ ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه[3].

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزنًا شديدًا، وأنه قال في ذلك شعرًا، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد[4]:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي لون وطعم وقل بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم:

أبا هابيل قد قتلا جميعًا وصار الحي كالميت الذبيح

وجاء بشرة قد كان منها على خوف فجاء بها يصيح

وهذا الشعر فيه نظر. وقد يكون آدم عليه السلام قال كلامًا يتحزن به بلغته، فألفه بعضهم إلى هذا، وفيه أقوال والله أعلم. وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه؛ فعلقت

١) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ١٦٩، وأبو داود في سننه، كتاب الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة.
٢) ابن كثير: قصص الأنبياء،ص ص٦٤، ٦٥.
٣) ابن كثير: قصص الأنبياء،ص٦٥.
٤) نفسه، ص ٦٦.

ساقه إلى فخذه، وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت، تنكيلاً به وتعجيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه. وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:»ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم«[١].

بهذا كان تطرف قابيل الفكري سببًا في قتل أخيه، ومن ثم هلاكه في الدنيا وعذابه الأليم في الآخرة.

ب- تطرف النمرود الفكري:

لم يكن عناد النمرود وتكبره، وتجبره، ليس على رُسُل الله فحسب، وإنما على الله خالقه وبارئه، إلا لونًا من ألوان التطرف الفكري الذي انحرف بصاحبه عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، لكي يقع في براثن الجهل، والعنف، والعدوان.

وقد أورد «ابن كثير» في كتابه «قصص الأنبياء» ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع العظيم الجليل في العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية، وهوَ أحدُ العبيد الضعفاء[٢].

قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه دليله، وبين كثرة جهله، وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار، وهذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح قال مجاهد. وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح[٣].

قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران. فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان. والكافران: النمرود وبختنصّر.وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة، وكان طغى وبغى، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا. ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل، والضلال، وطول الآمال على إنكار الصانع، فحاجّ إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية. فلما قال الخليل: (ربي الذي يحي ويميت

١) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ٣٦، ٣٨.
٢) ابن كثير: قصص الأنبياء،ص١٨٣.
٣) نفسه.

قال: أنا أحي وأميت). قال قتادة والسُّدِّي ومُحَمْد بن إسحاق: يعني أنه إذا آتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر[1].

وهذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها، (هذا دليل) على وجود فاعل. (و) ذلك، الذي لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها، وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب والرياح، والسحاب، والمطر، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إماتتها ولهذا ﴿**قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ . فيقول هذا الملك الجاهل (أنا أحيي وأميت) إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسُّدِّي ومُحَمْد بن إسحاق فلم يقل شيئًا يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل[2].

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادّعاه النمرود وانقطاعه جهرة: قَال: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها. وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء. فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحي وتميت فأتِ بهذه الشمس من المغرب فإنّ الذي يحي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد، أنك لا تقدر على شيء من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها. فبيَّن ضلاله، وجهله، وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبقَ له كلام يجيب الخليل به بل انقطع وسكت. ولهذا قال: ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ . وقد ذكر السُّدِّي: أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود، يوم خرج من النار، ولم يكن اجتمع به يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة[3].

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم: أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ، فكان

---

١) ابن كثير: قصص الأنبياء، ص ص، ١٨٤،١٨٣.
٢) نفسه، ص١٨٤.
٣) نفسه، ص ص، ١٨٥،١٨٤.

بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام.فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال:

اشغل أهلي إذا قدمت عليهم، فلما قدم: وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعامًا طيبًا، فعملت منه طعامًا. فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه؛ فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به. فعرف أنه رِزْقٌ رَزَقَهُموه الله عز وجل. قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبّار ملكًا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه. ثم دعاه الثانية فأبى عليه. ثم دعاه الثالثة فأبى عليه. وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي. فجمع النمرود جيشه وجنوده، وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذبابًا من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس وسلّطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودمائهم وتركتهم عظامًا باديةً، ودخلت واحدةٌ منها في منْخَر الملكِ فمكثت في منخره أربعمائة سنة، عذَّبه الله تعالى بها فكان يُضْرَبُ رأسُه بالمرازب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها[1].

هكذا، كانت عاقبة النمرود المتطرف الدمار والهلاك، وهذه هي النتيجة الحتمية لكل متطرف تسوِّل له نفسه أن يخرج عن حد الاعتدال والاستقامة.

جـ- تطرف فرعون الفكري:

يعد فرعون من اشد الناس تطرفًا على مدار التاريخ البشري؛ وذلك لأنه لم يكتفِ فمعصيته لأمر ربه، وإنما طغى، وتكبر، وتجبر، والأسوأ من كل هذا أنه ادعى الإلوهية من دون الله عز وجل.

لقد كان أول أمر فرعون في تطرفه الفكري هي رؤيا رآها، فقد رأى في منامه كأن نارًا أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والسحرة، وسألهم عن رؤياه، فقالوا له: هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، ثم إن فرعون أمر بقتل كل غلام يولد لبني إسرائيل. فجعل هناك قوابل ورجال يدورون على نساء بني إسرائيل ويعلمون ميقات وضع الحوامل، فإن كان ذكرًا قُتل، وإن كانت أنثى تُركت[2].

وكان بنوا إسرائيل مسخرين لخدمة فرعون والأقباط، ومع استمرار قوم فرعون في قتل الذكور، خشي الأقباط إن هم قتلوا كل مولود ذكر، أن لا يجدوا من يخدمهم، ويتولوا هم القيام بالأعمال

١) ابن كثير: قصص الأنبياء، ص ١٨٥،١٨٦.

٢) فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب: قصص الأنبياء، الرياض، د.ت.، ص ٢٩ .

التي كان يقوم بها بنو إسرائيل. ولذلك شكوا إلى فرعون ذلك الأمر، فأمر فرعون بقتل الذكور سنة، وأن يترك قتلهم سنة. فولد هارون بن عمران في عام المسامحة، وفي عام القتل حملت أم موسى بموسى،... ولقد حفظ الله موسى، ولما شب آتاه التوراة وأرسله وهارون إلى فرعون وملأه[1].

ولما قضى الأجل سار موسى بأهله قاصدًا أرض مصر، وكان له موعد تشريف، حيث امتن الله عليه وأكرمه بالرسالة، وكلمه ربه ﴿**فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ. اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ. وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ. قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ**﴾ [سورة القصص: ٢٩:٣٥].

فكلمه ربه، وأرسله إلى بني إسرائيل، وأعطاه آيات وبراهين، من رآها علم أنها ليست في مقدور البشر. فكانت عصا موسى تنقلب حية عظيمة، وحلّ عقدة من لسانه حتى يفقهوا عن موسى قوله وقد كان في لسانه لثغة، ثم أجاب الله سؤال موسى أن يرسل إلى هارون ويجعله وزيرًا معينًا لمواجهة فرعون وقومه، فأجاب الله موسى إلى ما سأل، وهذا دليل على وجاهة موسى عند ربه: ﴿**وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا**﴾ [سورة الأحزاب: ٦٩] [2].

ثم أمر الله موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون، ويدعونه إلى التوحيد، قال تعالى ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى. قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى. قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى. فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**﴾ [سورة طه: ٤٣:٤٧].

وأظهر موسى عليه السلام لفرعون الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله وأنه المستحق للعبادة دون ما سواه، فلم يستجب بل كابر وعاند، ثم أظهر موسى له الآيات الباهرة، فأظهر يده بيضاء شديدة البياض، وألقى العصا فكانت حية تسعى ترهب كل من رآها.

---

١) فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب: قصص الأنبياء، ص ٣٠.

٢) فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب: قصص الأنبياء، ص ٣١.

ومع ذلك كله، لم يستجب فرعون وقومه واتهموه بالسحر، وطلبوا موعدًا ليقابلوا سحرهما بسحر مثله، فأجاباهما إلى طلبهم وواعداهما يوم الزينة وهو يوم عيد لهم حيث يجتمع الناس كلهم، ولما جمع فرعون السحرة قالوا ﴿**قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى. فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى. قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى. قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى. فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى. قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى. قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾ [سورة طه: ٦٣:٧٣]. قال ابن عباس وغيره: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء.

ولما خاب ما كان فرعون يؤمله من قهر السحرة لموسى، حيث آمن السحرة كلهم لما رأوا آية ليست من جنس السحر، عندئذ، توعدهم فرعون بالقتل والصلب، فقتلهم وأفناهم. وحرض رجال فرعون، ملكهم فرعون على موسى ومن معه. واستمرت أذية فرعون وقومه، لموسى وقومه، فانتصر الله لموسى فابتلى فرعون وقومه بأنواع من العذاب، فابتلاهم بالسنين، والطوفان، والجراد، والقمل، والدم، والضفادع، فتنكد عيشهم بذلك. وكانوا كلما ابتلوا ببلوى سألوا موسى أن يدعو ربه ليرفع عنهم العذاب، وإن فعل ليؤمنوا له ويرسلوا معه بني إسرائيل. وكان موسى يدعو ربه في كل مرة يسألونه ذلك، وكان الله يستجيب دعاء نبيه ورسوله[1].

ولما تمادى فرعون وقومه في الضلال والغي، وكفرهم بالله، ومخالفة لرسوله. أوحى الله إلى موسى أن يكون هو وبنو إسرائيل على أهبة الرحيل، وأن يجعلوا في بيوتهم علامة تميزهم عن بيوت الأقباط، ليعرفوا بعضهم عند الرحيل، وأمرهم الله بإقامة الصلاة: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ. قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ. وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ**

١) فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب: قصص الأنبياء، ص ٣٣.

فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [سورة يونس: ٨٧:٩٢][١].

فأمر الله موسى وقومه بالخروج، واحتالوا على فرعون بأنهم يريدون أن يخرجوا لعيد لهم، فأذن لهم فرعون وهو كارهٌ لذلك. فسار موسى ببني إسرائيل واستمروا ذاهبين صوب بلاد الشام، ولما علم فرعون بمسيرهم، حنق عليهم حنقًا شديدًا، وجمع جيشه من كل مملكته، وخرج على رأسهم في جيش عظيم جدًا طالبًا موسى وقومه، يريد الفتك بهم وإفنائهم. واستمروا في سيرهم طالبين موسى وقومه حتى أدركوهم عند شروق الشمس، ولما رأى بنوا إسرائيل فرعون وقومه مقبلين نحوهم قالوا:»إنا لمدركون» وقال موسى من فوره مقالة الواثق بربه،»كلا إن معي ربي سيهدين». وأوحى الله لموسى أن يضرب بعصاه البحر، فانفلق البحر اثنا عشر طريقًا، وكان بنوا إسرائيل اثنا عشر سبطًا، فسار كل سبط في طريق، ورفع الله الماء كالجبل يابسًا، ولما وصل فرعون إلى البحر، ساءه ما رأى، وأخذته الحمية، ودفع بفرسه داخل البحر يريد أن يدرك موسى، ولما تكامل موسى وقومه خارجين من البحر، وتكامل فرعون وقومه في البحر، أمر الله البحر فأطبق الماء على فرعون وقومه وأغرقهم جميعًا، ولما رأى فرعون الموت قال ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾ فقال الله ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ . فأخرج الله جثة فرعون لكي يراه الناس ويتيقنوا هلاكه، وهكذا كانت عاقبة تطرفه وكبريائه[٢].

٣- التطرف في:

(أ)- الفكر الغربي منذ اليونان والعصور الوسطى وحتى الآن.

كما أن التطرف ليس حكرًا على المجتمعات العربية والإسلامية، فكل المجتمعات عانت أو تعاني من أشكال مختلفة من التطرف الديني، والسياسي،....الخ، سواء في الفكر والمعتقد، أو في الممارسة والسلوك. ولكن لماذا الوثنية اليونانية بالذات لتاريخ التطرف والغلو بها قديماً؟

إن إيراد هذا السؤال مهم، فلماذا العناية ببيان وثنية هؤلاء القوم؟ إنه انقداحُ ذهن وتلمسٌ من قوله تعالى في سورة براءة: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:

١) فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب: قصص الأنبياء، ص ٣٣.
٢) فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب: قصص الأنبياء، ص ٣٤.

٣٠]. فذكر سبحانه في هذه الآية مشابهة قول اليهود والنصارى في دعواهم البنوة لله تعالى مَن قبلهم مِن الكافرين الذين قالوا مقالات هي أصل لهذه المضاهاة.

قال ابن كثير- رحمه الله- على قوله: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: يشابهون من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء(١). ونقل ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير»(٢) عن الزجاج قوله ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ يشابهون قول من تقدمهم من كفرتهم، فإنما قالوه اتباعًا لمتقدميهم. ثم قال ابن الجوزي: وفي قوله ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم عبدة الأوثان، والمعنى أن أولئك قالوا: الملائكة بنات الله، قاله ابن عباس.

الثاني: أنهم اليهود، فالمعنى أن النصارى في قولهم: المسيح ابن الله، شابهوا اليهود في قولهم: عزير ابن الله. قاله قتادة والسدي.

والثالث: أنهم أسلافهم، تابعوهم في أقوالهم تقليدًا، قاله الزجاج وابن قتيبة.ا.هـ.

ونحوه ما حكاه القرطبي والشوكاني في تفسيرهما عند هذه الآية(٣) وقبلهما الحافظ ابن جرير الطبري على آية براءة. وعلى كل فالأقوال الثلاثة ليست متعارضة، وليس الخلاف بينها اختلاف تضاد، بل هو من قبيل اختلافً التنوع، إذ المعنى يحتمل أحد الأقوال كما يحتملها جميعًا(٤).

ومما يدخل في معنى الذين كفروا من قبل اليهود والنصارى: مَن سبقهم من الأمم، التي شابهت مقالة اليهود والنصارى في دعوى البنوة لله مقالتهم. وهذه المقالة- بتولّد الآلهة وكون لها أبناء- عقيدة وثنية صريحة واضحة عند الأمة اليونانية القديمة! فلذا دخل اليونانيون الوثنيون في مفهوم الآية ومنطوقها من هذا الاعتبار فهم ممن كفر قبلُ. وهو أيضًا مظهر جلي للغلو والتطرف الديني الذي أورث العنف، والتكفير، والإرهاب لمن لم يوافقهم في العقيدة الوثنية(٥).

١) علي بن عبد العزيز بن علي الشبل: الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف، الناشر، المؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٤، ص ص ١٩:٢٢. انظر « تفسير ابن كثير « ٢/ ٣٤٨.

٢) علي بن عبد العزيز بن علي الشبل: الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف،
انظر: «زاد المسير» ٣/ ٢٨٩، و«معاني القرآن» لأبي جعفر النحاس ٣/ ٢٠٠ بنحو ما ذكره ابن الجوزي، وانظر:«التسهيل لعلوم التنزيل» لابن الجزري ٢/ ٧٤ .

٣) علي بن عبد العزيز بن علي الشبل: الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف، انظر: «تفسير القرطبي» ٨/ ١١٨-١١٩، و«فتح القدير» ٢/ ٣٥٣ .

٤) علي بن عبد العزيز بن علي الشبل: المرجع السابق، ص ص ١٩:٢٢.

٥) علي بن عبدالعزيز بن علي الشبل: الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف، ص ص ١٩:٢٢.

هذا فضلاً عن تأثير الوثنية اليونانية على من بعدها من الأمم حيث ظهر تأثيرهم الوثني على اليهود، والنصارى، وعلى بعض الفرق الضالة من: الجهمية، والمعتزلة، والمتكلمين، وقبلهم الفلاسفة ...، فضلاً عن تأثيرهم في غيرهم من الأمم الوثنية المشركة من: المجوس، والهندوس، والرومان.... إلخ. إذًا، في تجلية الغلو، والتطرف، والانحراف الوثني في العقيدة اليونانية بيان للذين كفروا من قبل ومبلغ معرفتهم بربهم، المتمثل في أدنى دركات الجهل، والعمى عن رب العالمين، وإن بلغوا مبلغًا متقدمًا في العمران المادي للدنيا بما خلفوه من تراث مادي بارز[1].

والموضوع أيضًا من دلالة قوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [سورة الأنعام:١١]. **وقوله تعالى:** ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا**﴾ [سورة فاطر: ٤٤]. ولاشك أن اليونانيين وغيرهم من متقدمي الغلاة والمتطرفين في دينهم داخلون في مطلوب التفكر، والاعتبار، والاتعاظ ومحاذرة طريقهم ومناهجهم في الآيات[2].

هذا بالإضافة، إلى التطرف في مختلف الحياة المجتمعية والحياتية؛ من غلو في إعمال العقل، وديكتاتورية في الحكم، وظلم للمرأة...الخ.

أما التطرف في العصور الوسطى المسيحية، فقد بلغ إلى أن سُميت بعصور الظلام، وذلك من عدة اتجاهات منها على المستوى الفكري والديني مثلاً؛ فعلى الرغم من أن السمة الغالبة على روح هذا العصر آنذاك هي جعل العقل في خدمة الدين ومن ثم التوفيق بينهما، إلا أن التطرف الفكري بلغ حد التحريم لمحاولة أدنى توفيق بينهما. ولعل خير مثل على أولئك أنصار المذهب الكاثوليكي المسيحي، وظهور ما يسمى بـ «محاكم التفتيش» التي كانت تعمل على محاسبة المخالفين للمسيحية وكانت تصفهم بـ «الهراطقة».

أما على المستوي المجتمعي فقد وقع الظلم على المرأة كثيرًا كما كان عند بلاد اليونان، وبالنسبة للمستوى السياسي فقد زادت سلطة الحكام ونفوذهم؛ لأنهم كانوا يمثلون السلطة الزمنية والتي تم منحها الحق في الحكم من منطلق نظرية الحق الإلهي، فمن أطاع الحاكم فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله[3].

---

١) المرجع نفسه.

٢) انظر بحث: علي بن عبد العزيز علي الشبل: الانحرافات الوثنية في العقيدة اليونانية وآثارها، الرياض، دار المسير بالرياض، ١٤١٧هـ.

٣) للمزيد بشيء من التفصيل انظر:

- رمسيس عوض: محاكم التفتيش، القاهرة، دار الهلال، ٢٠٠١.

لذا، فقد عاني الأوربيون من اضطهاد الكنيسة فاضطروا لعزلها عن الحياة حتى تستقيم، فظهر مفهوم الدولة المدنية في سياق فصل «الكاثوليكية» عن الدولة، وهذا ما عبر عنه ديورانت نفسه بقوله: «إن الجدل الذي أهاج مشاعر الطبقات المفكرة في نصف القرن الذي سبق الثورة الفرنسية لم يكن مجرد صراع بين الدين والفلسفة، بل كان بالدرجة الأولى بين الفلاسفة والمذهب الكاثوليكي المسيحي كما وجد في فرنسا آنذاك، إنه الغيظ المكظوم في قلوب الفرنسيين لقرون طويلة من جراء ما لطَّخت به الديانة سجلها من الوقوف في وجه التقدم والمعرفة والاضطهادات والمذابح»[١].

أما عن التطرف الفكري في العصر الغربي الحديث والمعاصر؛ فقد تمثل في المستوى الفكري والديني والأخلاقي، والسياسي، والاقتصادي، والاجتماعي،...الخ، فبالنسبة للدين والقيم الأخلاقية فإن الحضارة المعاصرة (الحضارة الغربية) تُعاني بوجه عام من[٢]:

أ- انحسار الإيمان بالله الذي يمكن أن يكون أساسًا للالتزام الخلقي، وكما يعبر «هوفمان»: «لقد عوَّض الغرب خسارته في الإيمان بالله، بإيمان لا حدَّ له بالتقدم الذي جعل العالم يبدو أكثر استنارة وعقلانية... رغم كوارث المائة عام الماضية بطريقة لا تصدَّق أن الإيمان الأبله للغرب بالإله الجديد «التقدم» ما زال سائدًا. يمكن للمفكرين الغربيين أن يستنتجوا- وقليل منهم فعلوا- أن الأحداث الرهيبة للقرن «العشرين» نفت إمكانية أن تعتمد الأخلاق على التقدم. تسليم الإنسان للأوامر الأخلاقية الإلهية- ولا شيء غير ذلك- يمكن أن يضبط الأعمال الأخلاقية للأفراد والجماعات».

ب- سيادة فكرة النسبية في القيم الخلقية، وليست النسبية محكومة دائمًا بالعقل والمنطق ولكنها- في الغالب إن لم يكن دائمًا- محكومة بالهوى والوهم وإيحاءات الـ Culture.

لقد كان من الطبيعي أن تتأثَّر الأخلاق في العلاقات الدولية في الغرب بنظرته إلى الأخلاق بوجه عام. ولا يقتصر الأمر على هذا، فمن وراء ذلك تعاني القوة الإلزامية للقيم الأخلاقية في مجال العلاقات الدولية من عوامل ضعف أخرى وربما أبلغ.

ينسب "فرانكل" إلى الدكتور "رينولد نيبر" قوله: «إن البشر بدلاً من أن يمدوا قواعدهم الأخلاقية لتشمل السياسة الدولية ينزعون إلى استخدام السياسة للتنفيس عن نزعاتهم اللاأخلاقية وأنهم بالتالي بشر أخلاقيون في مجتمع لا أخلاقي»[٣].

---

١) ول وايريل ديورانت: قصة الحضارة؛ عصر فولتير، ترجمة، محمد بدران، الكتاب الثاني، بيروت، ١٩٥٤، ص ١٢٤٩٥.
٢) صالح عبد الرحمن الحصين: العلاقات الدولية بين منهج الإسلام والمنهج الحضاري المعاصر، جدة، ٢٠٠٥، ص ص ٤،٥.
٣) جوزيف فرانكل: العلاقات الدولية، ترجمة: غازي عبد الرحمن القصيبي، الطبعة الثانية، جدة، تهامة، ١٩٨٤، ص ١٧١.

وحتى عندما نسلم بأن للقيم الأخلاقية أثرًا ما في العلاقات الدولية تواجهنا مشكلة أخرى، هي الغموض في تحديد الأخلاق الدولية. يقول فرانكل: «إن الذي يجعل الأخلاق الدولية على ما هي عليه من غموض هو أن معناها لم يحدَّد فقط بوضوح كما أنه لم يوجد بعدُ اتفاقٌ بين المفكرين على العلاقة بين قواعد الأخلاق الفردية وقواعد الأخلاق الدولية، تذهب إحدى المدارس الفكرية متبعة في ذلك ميكيافليي إلى إنكار الأخلاق الدولية كلية».

لذلك، فإن أي تحليل واقعي للعلاقات الدولية لا يسعهُ أن يتقبل دون مناقشة دعاوى رجال السياسة المكررة في كل البلدان بأنهم محكومون بالقيم الأخلاقية. إن من الواضح أن الأخلاق كثيرًا تستدعى وبأسماء مختلفة لا لشيء إلا لإضفاء قدر من الاحترام على المصالح الأنانية للدولة، كما أن اللجوء إلى الأخلاقية تبرير شائع مريح في يد الطرف الذي يعارض الحقوق القانونية لطرف آخر»[1].

لعل النتيجة التي ينتهي إليها القارئ مما سبق، أن الحقيقة الواقعة فيما يتعلق بالعلاقات الدولية في الحضارة المعاصرة ترتكز أساسًا إن لم يكن كليًا على المصلحة الوطنية، والقوة.

أما بالنسبة لتطرف الحضارة الغربية على المستوى السياسي؛ فقد عملت الولايات المتحدة الأميركية على ترسيخ سياستها هي فحسب، محاولة سيطرة هيمنتها ونفوذها السياسي، والاقتصادي، والفكري على العالم كله من خلال ما يعرف بـ «العولمة»[2].

ناهيك، عن الاستبداد السياسي، والقهر، والإرهاب، والتطرف تحت شعارات زائفة وخداعة وباسم الديمقراطيات والحريات أباد الغرب مئات بل ملايين من البشر بسبب الحروب الطاحنة التي تم شنها تحت راية عمياء هدفها المصلحة والمنفعة الشخصية ليس إلا. هذا، بالإضافة إلى الانحلال القيمي والأخلاقي والمجتمعي الذي حل بهذه البلاد.

ومن ثمَّ، فقد ارتبطت نشأة المذاهب الأدبية الغربية بحالات نفسية معيَّنة، وبظروف سياسية، واقتصادية، واجتماعية خاصة، عكست فلسفة واقع مرَّت به الحضارة الغربية، وقد مثَّل أغلبها- في معظم الأحيان- حالات من التأزُّم النفسيِّ، وانعدام الإيمان واليقين، أو جحود أيَّة ثوابت أو قطعيَّات يمكن أن يفيءَ إليها الإنسان لتكسبه الراحة والأمان.

١) نفسه، ص ١٦٩. انظر: صالح عبد الرحمن الحصين: المرجع السابق، ص ٥.

٢) للاستزادة في هذا الموضوع انظر:

- روجيه جارودي: الإرهاب الغربي، تعريب، عبد المسيح فلي، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤.

- شوقي جلال: العقل الأميركي يُفكِّر، من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

لقد شُكِّك هذا الإنسانُ في الدين، والأخلاق والمُثُل والقيم الروحية جميعِها، حتى بدا كالريشة في مهبِّ الريح. يقول تزارا- ومثله كثيرون: «الوطن، والعائلة، والأخلاق، والفن، والدين، والحرية، والأخوَّة: كانت قديماً جوابًا للحاجات الإنسانية، وفي يومنا لم يبقَ منها إلا هيكل عظميٌّ من الاتفاقات والاعتبارات، هنالك عمل تهديميٌّ كبير ينبغي أن يتمَّ، لا بد من الكَنْس والتنظيف»[١].

وعلى هذا، بدت المذاهب الأدبية الغربية وكأنها تنشأ ردَّات أفعال على أفكار سابقة، رغبة - كما سبق أن ذكرنا - في مجرِّد التغيير، بدا كل مذهب جديد وكأنه ينقض ما قبله أو يسفِّهُه ويلغيه؛ فإذا ما كان الذي قبله في اليمين، انحاز هو إلى اليسار[٢].

لذلك، كان التطرف سمةً واضحة في كل مذهب من المذاهب الغربية، وسُرعانَ ما كان يَتبيَّن عَوارُه بسبب هذا التطرف، فتظهر الحاجة إلى غيره، فيظهر مذهب جديد يكون ردَّة فعل على ما سبقه؛ ولذلك يتسم مثله بالتطرف والغلو. يقول عز الدين إسماعيل: «إن كل مذهب يتطرَّف في اتجاهه حتى يصل إلى زمن يحسُّ الناس فيه بأنه ليس كافيًا للتعبير، ويمضون يبحثون عن أسلوب جديد»[٣].

(ب) في الفكر العربي منذ بلاد العرب قبل البعثة المحمدية والعصر والوسيط الإسلامي وحتى الآن.

ظهر التطرف الفكري في بلاد العرب قبل البعثة المحمدية من الناحية الدينية حين عبدوا الأوثان والأصنام من دون الله، كما كان من قبل في الحضارات الأخرى؛ ففي الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي حكمت العديد من الدول، كانت دولة ظالمة مارست الظلم والجور والتعسف على الشعوب التي حكمتها...

وقد ظهر الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي في عدد كبير من الدول. وكان المجتمع الروماني مليئًا بالتناقض والاضطرابات. أما الإمبراطورية الفارسية فقد كثرت فيها الديانات المنحرفة؛ كالزرادشتية، والمانية، والمزدكية التي دعت إلى الإباحية في كل شيء.

أما الهند فقد كانت أحط أدوارها ديانة وخلقًا واجتماعًا وسياسة، فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد، لأن الدين أعطاها لونًا من القدس والتعبد، وكانت المرأة لا قيمة لها ولا عصمة، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفى عنها زوجها، كما امتازت الهند عن أقطار العالم بالتفاوت الطبقي الفاحش[٤].

١) وليد قصاب: التطرف في المذاهب الأدبية الغربية، شبكة الألوكة، ٢٠١٤، تم الدخول ١٠/ ٣/ ٢٠١٦.
- http://www.alukah.net/literature-language/0/76138/#ixzz42V7U7yU6

٢) وليد قصاب: التطرف في المذاهب الأدبية الغربية.

٣) وليد قصاب: التطرف في المذاهب الأدبية الغربية.

٤) على محمد الصلابي: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دراسة شاملة، الجزء الأول، القاهرة، دار ابن حزم، ص ص

وعلى هذا، فقد كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام العظيم تعيش مرحلة من أحط مراحل التاريخ البشري في شؤونها الدينية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، وتعانى من فوضى عامة في كافة شؤون حياتها، وهيمن المنهج الجاهلي على العقائد والأفكار والتصورات والنفوس، وأصبح الجهل والهوى والانحلال والفجور، والتجبر والتعسف من أبرز ملامح المنهج الجاهلي المهيمن على دنيا الناس. وضاع تأثير الديانات السماوية على الحياة أو كاد بسبب ما أصابها من التبديل والتحريف والتغيير الذي جعلها تفقد أهميتها باعتبارها رسالة الله إلى خلقه، وانشغل أهلها بالصراعات العقدية النظرية التي كان سببها دخول الأفكار البشرية، والتصورات الفاسدة على هذه الأديان حتى أدى إلى الحروب الطاحنة بينهم...

ففي الجانب الديني تجد الناس إما ارتدوا عن الدين أو خرجوا منه أو لم يدخلوا فيه أصلاً، أو وقعوا في تحريف الديانات السماوية وتبديلها. وفي الجانب التشريعي نبذوا شريعة الله وراءهم ظهريًا، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين، وشرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل وتختلف مع الفطرة. فاليهودية أصبحت مجموعة من الطقوس والتقاليد لا روح فيها ولا حياة، وتأثرت بعقائد الأمم التي جاورتها واحتكت بها[١].

إن المجتمع اليهودي قبل البعثة المحمدية قد وصل إلى الانحطاط العقلي وفساد الذوق الديني، فإذا طالعت تلمود بابل الذي يبالغ اليهود في تقديسه، والذي كان متداولاً في القرن السادس المسيحي، تجد فيه نماذج غريبة من خفة العقل وسخف القول، والاجتراء على الله والعبث بالحقائق والتلاعب بالدين والعقل[٢].

أما المسيحية، فقد امتحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء السحب الكثيفة، واندلعت الحروب بين النصارى في الشام والعراق، وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح وطبيعته، وتحولت البيوت والمدارس والكنائس إلى معسكرات متنافسة وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحي في مظاهر مختلفة وألوان شتى.

ليس هذا فحسب، بل وصل الأمر إلى أن كفَّر بعضهم بعضًا، وقتل بعضهم بعضًا، وانشغل النصارى ببعضهم عن محاربة الفساد وإصلاح الحال ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشرية. أما المجوس؛ فقد عُرفوا من زمان بعبادة العناصر الطبيعية، أعظمها النار. أما البوذية، في الهند وآسيا الوسطى، فقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلَّت ونزلت[٣].

---

١) على محمد الصلابي: السيرة النبوية، ص ١٦.

٢) أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة السابعة، ١٤٠٨هـ، ص ٢٠.

٣) على محمد الصلابي: السيرة النبوية، ص ص ١٧، ١٨.

أما بالنسبة لأحوال العرب قبل البعثة المحمدية، فقد ابتليت الأمة العربية بتخلف ديني شديد، ووثنية سخيفة لا مثيل لها، وانحرافات خلقية، واجتماعية، وفوضى سياسية، وتشريعية. وفيما يتعلق بالأحوال الدينية؛ فقد امتلأت قلوب العرب بتعظيم تراث الآباء والأجداد، وإتباع ما كانوا عليه مهما يكن فيه من الزيغ والانحراف والضلال، ومن ثمَّ، عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم...

وقد حالت هذه الوثنية السخيفة بين العرب، وبين معرفة الله، وتعظيمه، وتوقيره، والإيمان به وباليوم الآخر، وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله، وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم، وضعف توقير الله في نفوسهم قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ [سورة الأنعام:١٣٦][١].

أما عن الحالة السياسية، فقد كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو، وحضر وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب)، ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي.

وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار، وكان- عدا هذه الحروب الكبرى- تقع غارات فردية بين القبائل تكون أسبابها شخصية أحيانًا، أو طلب العيش أحيانًا أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حدِّ سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليلٍ أو نهار لتسلب أنعامها ومؤنها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس[٢].

أما الحالة الاجتماعية؛ فقد هيمنت التقاليد والأعراف على حياة العرب وأصبحت لهم قوانين عرفية فيما يتعلق بالأحساب والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها والأفراد كذلك ويمكن إجمال الحالة الاجتماعية فيما يأتي[٣]:

١) نفسة، ص ص ٢٤، ٢٥.
٢) على محمد الصلابي: السيرة النبوية، ص ٢٦.
٣) نفسه، ص ص ٢٩، ٣٠.

١- الاعتزاز الذي لا حدّ له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما:

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك وبين لهم أن التفاضل إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

٢- الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لاسيما الشعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سجل مفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نجم فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعر ينبغ في القبيلة.

٣- المرأة في المجتمع العربي:

كانت المرأة عند كثير من القبائل كسقط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزوج من غيرها من حقه أن يتزوجها بعد وفاة أبيه أو يَعْضلها عن النكاح، حتى حرّم الإسلام ذلك وكان الابن يتزوج امرأة أبيه، فنزل قول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ (سورة النساء، الآية:٢٢).

وكانت العرب تحرم نكاح الأصول كالأمهات، والفروع كالبنات، وفروع الأب كالأخوات، والطبقة الأولى من فروع الجد كالخالات والعمات. وكانوا لا يورِّثون البنات ولا النساء ولا الصبيان، ولا يورثون إلا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل.

وبقي حرمان النساء والصغار من الميراث عرفًا معمولاً به عندهم إلى أن توفى أوس بن ثابت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك بنتين كانت بهم دمامة، وابنًا صغيرًا، فجاء ابنا عمه- وهما عصبته- فأخذا ميراثه كله، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين، فابيا ذلك لدمامتهما، فأتت رسول الله فقالت: يا رسول الله توفي أوس وترك ابنًا صغيرًا وابنتين، فجاء ابنا عمه سويد وعرفطة فأخذا ميراثه، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه، فابيا. فقال عليه الصلاة والسلام: »لا تحركا من الميراث شيئًا«، ونزل قوله تعالى: ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا**﴾ [سورة النساء: ٧][١].

وكان العرب يعيّرون بالبنات، لأن البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال، وإذا ما سُبيت اتخذت للوطء تتداولها الأيدي لذلك،

١) على محمد الصلابي: السيرة النبوية، ص ٣٠.

بل ربما أكرهت على احتراف البغاء، ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء الى ماله- وكانت العرب تبيح ذلك- وكان هذا يورث الهمَّ والحزن والخجل للأب عندما تولد له بنت وقد حدثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت قال تعالى: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ صدق الله العظيم يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ صدق الله العظيم﴾** [سورة النحل: ٥٨:٥٩] (١).

وكثيرًا ما كانوا يختارون دسها في التراب، ووأدها حية، ولا ذنب لها إلا أنها أنثى، ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشنيعة قال تعالى: **﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ صدق الله العظيم بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ صدق الله العظيم﴾** [سورة التكوير: ٨:٩].

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر أو خشية الفقر فجاء الإسلام وحرّم ذلك قال تعالى: **﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ([سورة الأنعام: ١٥١]. وقال تعالى:)وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾** [سورة الإسراء:٣١].

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء كزيد بن عمرو بن نفيل. وكانت بعض القبائل تحترم المرأة، وتأخذ رأيها في الزواج، وكانت المرأة العربية الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها وحليلها وكانت تتسم بالشجاعة وتتبع المحاربين وتشجعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضرورة وكانت المرأة البدوية العربية تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف، وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصون والتعفف(٢).

أما في العصر الوسيط الإسلامي؛ فعلى الرغم من ازدهار الحضارة العربية والإسلامية وتقدمها، وبلوغها على مراتب التقدم الحضاري مما جعلها منارة تهتدي بها البشرية جميعًا في كافة المستويات؛ الدينية، والفكرية، والعقلية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعلمية،... وغيرها، إلا أن هذا التقدم لم يحول بين وجود بعض من الانحراف والتطرف الفكري. فعلى سبيل المثال، على الرغم من تقدم الفلسفة آنذاك وازدهارها، إلا أنه وُجد بعض من تطرف منهم فكريًا، مما أدى بالتالي إلى التعامل معه بصورة معتدلة حينًا وبصورة متطرفة أحيانًا أخرى.

---

١) على محمد الصلابي، ص ٣١.

٢) على محمد الصلابي: السيرة النبوية، ص ٣١.

وكما ضعفت العقائد المسيحية وتزعزعت قواعدها تحت ضربات أصحاب الموسوعات الفرنسيين وسخرية فولتير اللاذعة. كانت البداية التقريبية للعهد الذي نستطيع أن نسميه عهد الاستنارة الإسلامية هي الجدل الذي ثار حول موضوع عجيب هو موضوع خلق القرآن.

ذلك أن عقيدة فيلون في الكلمة وقوله إنها حكمة الله الأبدية، وما جاء بهِ الإنجيل الرابع من أن المسيح هو كلمة الله أو العقل القدسي... وعقيدة المسيحيين العارفين وأتباع الأفلاطونية الحديثة الذين يجسدون الحكمة الإلهية يقولون إنها هي أداة الخلق الفعالة، وعقيدة اليهود في أزلية التوراة –كل هذه الآراء قد أوجدت عند المسلمين السنيين عقيدة مماثلة تقول إن القرآن كان على الدوام موجودًا في عقل الله، وإن نزوله على محمد كان هو دون غيره حادثًا في زمان معين، وكانت نشأة الفلسفة في الإسلام على يد المعتزلة الذين ينكرون قدم القرآن، وهم يجهزون باحترامهم لكتاب الله (الكريم) ولكنهم يقولون: إنه إذا تعارض هو أو الحديث مع العقل وجب ألا يفسر تفسيرًا حرفيًا بل مجازيًا، وأطلقوا على يد هذه الجهود التي يحاولون بها التوفيق بين العقل والدين اسم الكلام أي المنطق.

وقد بدا لهم أن من السخف أن تؤخذ بحرفيتها العبارات الواردة في القرآن والتي تقول إن لله يدين وقدمين، وإنه يغضب ويكره، وقالوا إن تشبيه الله بالكائنات البشرية على هذا النحو الشعري، إذا كان يتفق مع أغراض النبي الأخلاقية والسياسية في أيام الرسالة، لا يمكن أن يقبله المتعلمون المستنيرون في أيامهم، وإن العقل البشري عاجز كل العجز عن معرفة طبيعة الله وصفاته، وكل ما يستطيعه أن يقبل ما جاء به الدين من إثبات وجود قوة روحية عليا هي أساس الحقائق عامة. وفضلاً عن هذا فقد كان المعتزلة يرون أن الخطر الشديد على أخلاق الناس وأعمالهم أن يؤمنوا كما يؤمن عامة المسلمين بأن الحادثات كلها مقدرة تقديرًا كاملاً من عند الله، وأن الله قد اختار منذ الأزل من سيثاب ومن سيعذب[1].

وانتشرت عقائد المعتزلة بهذه الصورة وبما أدخل عليها من الصور الأخرى التي يخطئها الحصر أثناء خلافة المنصور، وهارون الرشيد، والمأمون؛ واعتنق هذه المبادئ العقلية الجديدة سرًّا في بادئ الأمر عدد من العلماء والخارجين على الدين، ثم جهز بها رجال في ندوة الخلفاء المَسائية، ثم وجدت من يدعو إليها في المحاضرات التي تلقى في المدارس والمساجد، بل تغلبت في أماكن متفرقة على غيرها من الآراء. وافتتن المأمون نفسه بهذه النزعة العقلية الآخذة في القوة، وبسط عليها حمايته، وانتهى الأمر بأن جعل عقائد المعتزلة مذهب الدولة الرسمي.

---

١) ول وايريل ديورانت: قصة الحضارة؛ عصر الإيمان، ترجمة، محمد بدران، بيروت، ١٩٥٤، ص ص ٤٨٢٩: ٤٨٣٠.

ذلك أن المأمون مزج بعض عادات الملكية الشرقية بآخر الآراء الإسلامية المستمدة من الثقافة اليونانية، وأصدر في عام ٨٣٢ أمرًا يفرض فيه على جميع المسلمين أن يعتقدوا بأن القرآن قد خُلق في وقت بعينه، وأتبع هذا بأمر آخر يقضي بألا يعين قاضيًا في المحاكم من لا يعلن قبولهُ لهذه العقيدة الجديدة أو أن تقبل فيها شهادتهُ.

وصدرت بعد هذين القرارين قرارات أخرى تحتم قبول عقيدة حرية الإرادة، وعجز النفس البشرية عن رؤية الله رأى العين، وانتهى الأمر بأن جعل رفض هذه العقائد من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بالإعدام. وتوفي المأمون في عام ٨٣٣، ولكن المعتصم والواثق اللذين توليا الخلافة بعده واصلاً هذه الحملة الفكرية، وقاوم الإمام ابن حنبل هذا الاضطهاد الفكري وندد بهِ.

ولما استدعي لمناقشته في أمر المبادئ الجديدة أجاب عن كل ما وجه إليه من الأسئلة بإيراد شواهد من القرآن تؤيد آراء أهل السنة، فضرب حتى أغمي عليهِ، وألقي في السجن؛ ولكنه أصبح في أعين المسلمين بسبب هذا التعذيب من الشهداء والأولياء الصالحين، وكان تعذيبه هذا من العوامل التي مهدت السبيل للانتفاض على الفلسفة الإسلامية[١].

وفي عام ١١٩٤ أصدر الأمير «أبو يوسف يعقوب المنصور» أمرًا بإحراق جميع كُتب «ابن رشد» إلا عددًا قليلاً منها في التاريخ الطبيعي، وحرِّم على رعاياه دراسة الفلسفة، كما أعدم «ابن حبيب» لدراسته الفلسفة[٢].

وعلى هذا، ظهرت صور التطرف الفكري في العصر الوسيط الإسلامي، وإن كانت بصورة أقل خطورة منها في عصرنا الراهن، الذي خرج فيه التطرف الفكري من صورة التنظير إلى صورة الواقع الفعلي، وقد جاء ذلك متمثلاً في صور العنف والإرهاب التي يُخطط لها أعداء الإسلام، من أجل أن يضربوا المسلمين بالمسلمين، وبالتالي، يتم تشويه صورة الإسلام للعالم كله كما يريد أعداءه.

ففي العصر الحديث ظهر الفكر المتطرف على أيدي بعض الجماعات التي كان بعضها صناعة غربية، وبالتالي ظهر في السجون في الخمسينات كرد فعل لألوان التعذيب التي تعرض لها الإسلاميون المعتقلون. وذلك أن القائمين على الأمور حينها كانوا يمارسون النظام الديكتاتوري والاستبداد السياسي ويسجنون الناس ويعذبونهم على آرائهم ويقمعون الحريات العامة كحرية الرأي وحرية الاجتماع.

١) ول وايريل ديورانت: المرجع السابق، ص ٤٨٣٠.
٢) ول وايريل ديورانت، ص ص ٤٨٠٢:٤٨٠٦.

في الخمسينات وفي السجون المصرية جرى هذا النقاش بين المساجين: هل يكفر من لم ينضم إليهم على اعتبار أنهم جماعة المسلمين التي ورد بشأنها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»[١]. فقال البعض بكفر من لم ينضم إلى الجماعة، وكان الرأي العام في الجماعة بأنهم جزء من المسلمين وليسوا كل المسلمين فهم «جماعة من المسلمين وليسوا جماعة المسلمين»[٢].

كما جرى نقاش حول الشرطة جنودًا وضباطًا هل هم مسلمون؟ فقال بعض المساجين بكفرهم وذلك استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾ [القصص: ٨].

وقالوا: «إنّ النص لم يفرّق بين فرعون وجنوده في الحكم الشرعي»، وكان رأي عامة الجماعة أن الحاكم ظالم وليس كافرا وهؤلاء الجنود هم ظلمة وليسوا كفرة على فرض اقتناعهم بعملهم أما إذا لم يكونوا مقتنعين فهم مكرهون على فعل الظلم. وقد جرى النقاش حول هوية المجتمعات التي يعيشون فيها: هل هي إسلامية أم جاهلية؟ فقال البعض بأنها مجتمعات جاهلية، وكان رأي عامة الجماعة بأنها مجتمعات مسلمة عاصية وأنها بمعصيتها لا تخرج من دائرة الإسلام[٣].

وفي الستينيات من القرن الماضي تكررت الاعتقالات لهذه التجمعات الإسلامية ذاتها وتعرضوا مرة أخرى لما سبق أن لاقوه من ألوان التعذيب وعلومه وفنونه، وقد أشاعت هذه التجمعات الإسلامية أن هناك مخططًا عالميًا لضرب الإسلام وتطويعه للأهداف الصهيونية والصليبية.

هذه الأساليب في التعامل مع الآخر كانت الدافع إلى نشأة فكر التكفير واستئصال الآخر، فلكل فعل خاطئ رد فعل خاطئ، وقد أُعلن عن ميلاد فكر التكفير عام ١٩٦٧م بعد حرب حزيران في معتقل أبي زعبل السياسي بمصر، عندما طلبت السلطة من المعتقلين تأييدها بالروح والدم في مواجهة الكيان الصهيوني. هنا اجتهد بعض المعتقلين لمنع البلاء عن الباقين فكتبوا صحيفة تضمنت تأييدهم للسلطة في مواجهة إسرائيل ولكن البعض الآخر، وهم الأقل، أشاع أنه يجب مواجهة النظام بكفره وكفر من لم يعلن كفر هؤلاء الحكام[٤].

---

١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، ١٨٤٧.

٢) كمال المويل: التطرف تاريخه وشرح مفصل، مجلة البداية الجديدة الإلكترونية، ١٤/ ١١/ ٢٠١٢، رئيس التحرير: سحر رياض، تم الدخول: ٩/ ٥/ ٢٠١٥.

- http://www.albedaya-algadida.com/page/index/6181

٣) كمال المويل: المرجع السابق.

٤) نفسه.

وتسرب هذا الرأي إلى المسئولين عن المعتقلات من رجال الشرطة، فتشكلت لجنة أمنية خاصة لمقابلة المعتقلين فردًا فردًا، وطلب التأييد منهم ظاهرًا، فكانت النتيجة أن أجاب زعيم المتطرفين بأن النظام المصري والنظام الإسرائيلي طواغيت يحارب بعضهم بعضًا لمصالح دنيوية وأنهم جميعًا في الكفر ملة واحدة، فقامت اللجنة بعزله وعزل من يشاركه الرأي في زنازين خاصة ومنعت عنهم كل شيء سوى القليل من الطعام والشراب بحيث لا يموتون.

وقد اتفق رأي المتطرفين على كفر الحاكم وكفر المحكومين بل وكفر المعتقلين الذين لا يعلنون كفر الحاكم. وعندما أخرجوا من الزنازين الخاصة إلى المهاجع العامة أقاموا صلواتهم وحدهم، وبدأ صراع فكري بين المعتقلين وخاصة الفقهاء منهم وكانت نتيجة الصراع أن وضع المعتدلون وهم الخط العام بين المساجين مذكرة في الكفر والإيمان صدرت فيما بعد في كتاب (دعاة لا قضاة) وهي تمثل خط الاعتدال في مواجهة خط التطرف[١].

إنّ بداية ظهور الفكر المتطرف كانت ردود فعل لما لقيه البعض من الاضطهاد في ظروف تاريخية معينة ولم يكن لهذا الفكر منهج لدى رواده الأوائل وهم جميعًا من الشباب وأكثرهم طلاب جامعات ومدارس ثانوية.

ولهذا بدأ الخلاف يدب بينهم وبين غيرهم ممن اعتبرتهم السلطة أعداء لها واعتبرهم هؤلاء الشباب كفارًا لأنهم لا يعلنون كفر الحكام، وكانت حصيلة هذا الصراع الفكري أن تطور الفكر المتطرف وأصبح له فرق متعددة أظهرها فرقتان:

عُرفت الأولى باسم (جماعة المسلمين) وعُرفت الثانية باسم (الجماعة الحركية) وإن كانوا لا يُعلنون هذه الأسماء. والجماعة الأولى أطلق عليها اسم (جماعة التكفير والهجرة) وتميزت بالوضوح والعلانية في تكفير الحاكم وجميع المحكومين إلا من انضم إليهم، وأما الجماعة الثانية فكانت تؤمن بهذا الفهم في الباطن ولكنها لا تظهر تكفيرها للمحكومين وتعلن كفر الحاكم فقط، وهؤلاء يرون أن هذا الأسلوب ضرورة حركية اقتضتها مصلحة جماعتهم، وهم يعللون هذا الأسلوب بأنهم في مرحلة استضعاف كالمرحلة المكية التي سبقت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم[٢].

وفي السبعينات من القرن الماضي تحول التكفير وهو استئصال فكري للآخر إلى الجهاد القتالي وهو استئصال مادي للآخر، وهذا أمر طبيعي لأن القتال (الاستئصال المادي) يولد في رحم

١) نفسه.

٢) كمال المويل: المرجع السابق.

التكفير (الاستئصال الفكري). ولكن المشكلة في قتال التكفيريين أنه على مذهب الخوارج وليس على مذهب أهل السنة، فالقرآن وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم سمح بقتال المقاتلين من الأعداء ولم يسمح بقتال غير المقاتلين سواء كانوا رجالاً أم نساءً أم كهولاً أم أطفالاً، وعندما وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة مقتولة في قلب المعركة قال: »من قتل هذه؟ ما كان لهذه أن تقاتل!«[1]، أما المتطرفون فإنهم يقتلون الآخر دون تمييز بين مقاتل وغير مقاتل[2].

على الرغم من أن التطرف الفكري لم تخلُ منه عقيدة، أو مجتمع، أو زمان معين، كما أوضحنا فيما سبق، إلا أنه لأسباب مقصودة، وبفعل ضعف العالم العربي والإسلامي، وسيطرة الآخرين على وسائل الإعلام وأدوات التوجيه القادرة على تشكيل القناعات، تم التركيز على ما يُسمّى ب-«التطرف الإسلامي»، في محاولة لإلصاق تهمة الإرهاب بالمجتمعات الإسلامية وبالإسلام ذاته.

وما هو مؤسف أن الإعلام العالمي يسلط الأضواء على كل صغيرة وكبيرة من الممارسات المتشدّدة والمتطرفة في العالم العربي والإسلامي، وفي الوقت ذاته يُغضّ الطرف عن الإرهاب، والتطرف الديني والسياسي الذي يجتاح المجتمع الغربي، وأدى إلى سيطرة المتطرفين على أغلبية المناصب السياسية المهمة، وكان اغتيال بعض رجال السياسة بسبب تعبيراتهم وأقوالهم المتطرفة.

كذلك يتم تجاهل كثير من مظاهر التطرف التي بدأت تجتاح عددًا من الدول الغربية التي نجحت فيها أفكار وأحزاب سياسية متطرفة في زيادة رقعة حضورها الشعبي وتأثيرها السياسي، بل إن المحافظين الجدد الذين ينطلقون من قناعات ونبوءات دينية متطرفة باتوا يسيطرون على السلطة في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان لأفكار اليمين المحافظ ومؤيديه دور حاسم في تسيير سياسة الولايات المتحدة حسب رغباتهم.

٤- التطرف الفكري المحلي و الدولي:

ليس ثمة شك، أن التطرف ظاهرة عالمية؛ تشمل العالم كله، ولا تقتصر على قطر دون آخر، أو على مكان دون غيره، أو حتى على زمان دون زمان. وإنما وُجِد ولا يزال يوجد في مختلف الأزمنة والأمكنة. وعلى هذا، فلابد من تشخيص وعلاج إشكالية التطرف في إطارها الصحيح، أعني، تشخيصها على المستوى العالمي، لأن محاولة التشخيص والعلاج على أساس قطري محلي ستؤدي إلى خطأ في التشخيص وخلل في العلاج.

١) رواه أحمد وأبو داود في المراسيل من حديث عكرمة.
انظر: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني: نيل الأوطار، تحقيق، عصام الدين الصبابطي، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٣، باب الكف عن قصد النساء والصبيان والرهبان والشيخ الفاني ٣٣٢٢.
٢) كمال المويل: المرجع السابق.

وحين نتساءل لماذا التطرف الفكري ظاهرة عالمية؟ تكون الإجابة، لأنه لا يرتبط بمكان، ولا زمان، ولا مجتمع محدد وإنما تخطى حدود الزمان والمكان بحيث لم يخل عصر أو مجتمع من وجود المتطرفين سواء في الماضي، أو في الحاضر، أو في المستقبل.

كما أنه لم يعد ظاهرة محلية تتداخل فيها الأسباب والدوافع بكل ألوانها وأطيافها، ومن أهم هذه الأسباب: افتقاد الناشئة والشباب القدوةَ والمثلَ الأعلى، والتسلط الأسري، والتفسير الخاطئ للدين والاعتماد على تفسير واحد فيه أو رأي فرد واحد وتخطئة جميع الاجتهادات الأخرى، والتجاء الشباب- في ظل الفراغ الفكري وقلة الوعي الديني- إلى جماعات الخروج والتمرد والانشقاق والمواجهة المسلحة، وضعف البرامج التربوية (العلاجية والوقائية)[1].

وعلى هذا، فقد كان منبت التطرف الفكري المحلي في العشيرة والقبيلة، ثم تطور إلى أن تم تكوين الدولة فنشأ داخل المجتمعات والدول المختلفة. أما التطرف الدولي فجاء بعد فكرة تقسيم العالم إلى دول بحيث أصبحت كل دولة مستقلة بذاتها لها إقليمها وشعبها ودستورها الخاص بها، ومن ثمَّ، لا يجوز لدولة أيًا كانت أن تتعدى على حدود غيرها من الدول.

وقد أدى هذا إلى ازدياد أطماع بعض الدول وتطلعها لما عند غيرها من الدول الأخرى، لما تتمتع به من مزايا وخيرات، ناهيك، عن التفاوت بين الدول؛ فثراء بعض الدول اقتصاديًا، جعل الدول الفقيرة تتطرف أملاً في الحصول على ما في يد غيرها.

٥- أنواع التطرف الفكري:

تتعدد أنواع التطرف الفكري؛ ما بين تطرف فكري ديني- يعد أشد أنواع التطرف لأنه يقوم على العاطفة التي تمس المعتقد- وتطرف فكري إيديولوجي، وتطرف فكري سياسي، واقتصادي، واجتماعي...الخ. وعلى هذا، سنتناول الحديث عن كل نوع منهم على حده على النحو التالي:

١- التطرف الفكري الديني (الفكر اليهودي/ تطرف بني إسرائيل - الفكر المسيحي- الفكر الإسلامي):

يُخطئ كثيرًا من يعتقد أن التطرف الديني يقتصر على دينٍ بعينه أو على أنصار دين دون غيره، وذلك لأن كل الأديان والمعتقدات لم تخلُ من وجود بعض الأشخاص الذين يشذون ويتطرفون فكريًا، وإن كان هؤلاء المتطرفون الذين ينتمون لهذا الدين أو ذاك هم الاستثناء في القاعدة وليس الأصل، لأن الأصل هو الاعتدال من وجهة نظر أتباع كل معتقد.

١) محمد الهدلاء: من أشكال الانحراف الفكري المؤدي للإرهاب، التطرف مفهومه أسبابه أبرز سمات المتطرفين، تم النشر: ٢٦ يوليو، ٢٠٠٩م، تم الدخول ٥٢/ ٧/ ٢٠١٥م.
- http://amnfkri.com/inf/articles.php?action=show&id=118

وإن كانت هناك معتقدات يعد التطرف الفكري فيها هو الأصل، وإن كانوا لا يصرحون بذلك؛ فمثلاً، معتقد عبدة الأوثان والأصنام قبل البعثة المحمدية كانوا جميعًا متطرفون فكريًا، وكان الاستثناء هو الخروج عن القاعدة وعدم عبادتها. والشيء نفسه، ينطبق على اليهودية والمسيحية بعد تحريفهما لكتابيهما السماويين: التوراة والإنجيل.

ولا أدل على صدق قولنا هذا من الغربيين الذين يُقصرونه على الدين الإسلامي ويوسمونه بدين التطرف، والعنف، والإرهاب، وإن كان التاريخ يثبت عكس ذلك؛ فالحروب الصليبية، والحرب العالمية الأولى والثانية، كانوا سببًا في قتل الملايين من البشر(١).

وإذا نظرنا إلى الفكر الديني اليهودي؛ بداية من تطرف بني إسرائيل وتمردهم على سيدنا موسى (عليه السلام) وطلبهم منه رؤية الله جهرة، ناهيك عن تاريخهم الأسود في تطرفهم المعتقدي ووصفهم لله بما لا يليق به، بالإضافة إلى قتلهم الأنبياء والمرسلين وقتلهم من يخالفونهم في المعتقد من بني البشر، وسوف نوضح ذلك فيما يلي.

ومن صور تطرف اليهود والنصارى في العقيدة؛ زعم اليهود أن عزير (عليه السلام) ابن الله، وزعم النصارى أن المسيح (عليه السلام) ابن الله، تعالى الله عن إفكهم علوًا كبيرًا، وذلك كما ذكرنا في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ ([التوبة: ٣٠].

ليس هذا فحسب، بل لقد قالوا أنهم أبناء الله وأنه اصطفاهم على غيرهم من البشر، وذلك كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ [المائدة:١٨].

ثم وجد بعد ذلك نوع من الغلو عند بني إسرائيل من يهود ونصارى كما سبق في قوله تعالى في سورتي النساء والمائدة: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**.....([النساء:١٧١، المائدة:٧٧]، كما وجد الغلو في التكفير عند كل من اليهود للنصارى والعكس قال الله تعالى: ﴿**وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ**﴾ حتى أدى بهم الأمر إلى استباحة دماء وأعراض كل منهما الآخر(٢).

١) للاستزادة بشيء من التفصيل عني اليهود وبني إسرائيل انظر:
– محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٠.

٢) علي بن عبد العزيز بن علي الشبل: المرجع السابق، ص٢٣.
انظر بشيء من التفصيل:
– عبد الرحمن عبد المحسن: التطرف الديني عند بني إسرائيل، مقال علمي في مجلة الفيصل عدد ١٣٤ – شعبان ١٤٠٨هـ، ص ٨٧–٩١.

فاليهود تُقرُّ مبدأ القتال لأنه مرتبط بوجودهم وبقائهم وأنهم أبناء الله وأحباؤه وما سواهم أمِّيون يجوز أن يفعلوا بهم ما شاءوا على مبدئهم الخبيث أنهم شعب الله المختار، وكما قصَّ الله عنهم في قوله: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران:٧٥]، ناهيك، عن نظرتهم لغيرهم على أنهم خدم لهم مسخرون لأجلهم. والنصارى تقرر أنها وارثة اليهودية بشريعة عيسى (عليه السلام)، كما نقموا على اليهود لأنهم صلبوا عيسى (عليه السلام) كما يظنون[١].

فأهل الكتاب- ولا سيما اليهود- عندهم مظاهر الغلو والتطرف واضحة جلية في مناح شتى في التغالي، والكبر، والعجب، والتيه على الناس جميعًا مسلمين ونصارى وغيرهم. وأيضًا في عقيدتهم وتميزهم عن الناس بالدعاوى الباطلة من كونهم أبناء الله وأحباءه، وزعمهم أنهم شعب الله المختار، وأنه ليس عليهم فيما يفعلون في غيرهم من الظلم، والبغي، والاعتداء حرج وسبيل[٢].

وأعظم مظاهر تطرفهم وغلوهم ما كان في جانب الله عز وجل من وصفه سبحانه وتعالى بالنقائص، وإضافة العيوب إليه، ومما فضحهم الله به في القرآن[٣]:

١- قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء، كما في آخر سورة آل عمران: ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ. الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [آل عمران:١٨١-١٨٣].

٢- ووصفهم الله بالبخل والطمع، كما في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [المائدة : ٦٤] .

- محمد الشويعر: الإلحاد وعلاقته باليهود والنصارى، بحث في مجلة البحوث عدد ١٤عام ١٤٠٥هـ، ص ٢٠٩.

١) علي بن عبد العزيز بن علي الشبل: المرجع السابق، ص ٢٤.

٢) علي بن عبد العزيز بن علي الشبل: المرجع السابق، ص ٢٤.

٣) فسه، ص ص ٢٥،٢٦.

٣- وعيبهم الله بالتعب والإعياء في خلق السموات والأرض في ستة أيام، وقد أكذبهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ**﴾ [ق : ٣٨].

٤- ومن إرهابهم: قتلهم أنبياء الله ورسله إليهم وفسادهم وإفسادهم في الأرض وفي حكم الله، مما تواردت عليه آيات كثيرة في القرآن من أولها قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ٦١].

على الرغم من اشتراك أهل الكتاب- اليهود والنصارى- في بعض صور التطرف، كما عرضنا في السابق خاصة فيما يتعلق بالتطرف العقدي، إلا أن النصارى وإن كان من بينهم تلك الفرق المتطرفة التي أبادت الملايين من البشر باسم الحروب المقدسة كالحروب الصليبية مثلاً، إلا أن النصارى أقربهم مودة للذين آمنوا قال الله تعالى: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [المائدة:٨٢:٨٥].

لم يخلُ أيضًا الفكر الإسلامي من وجود بعض الفرق، أو الجماعات، أو الأشخاص المتطرفة؛ فقد ظهر نوعان من التطرف الفكري الديني الإسلامي، أحدهما، تطرف إلى أقصى اليمين مثل: الخوارج، والمعتزلة، والشيعة، والمرجئة قديمًا، والتكفيريين، والمتشددين، والقرآنيين والظاهراتيين الذين يأخذون بظاهر النص، حديثًا. بينما كان النوع الآخر من التطرف، هو التطرف إلى أقصى اليسار مثل: تطرف المنافقين، والعلمانيين، والليبراليين، والشيوعيين... وغيرهم.

لذا، يُسمى هذا النوع من التطرف الديني بالتطرف العقدي أو المذهبي؛ لأنه يتمثل في مجموعة من العقائد التي تصنف حسب النقاد بالمتطرفة مثل: النازية، الفاشية، الميليشيات، الإرهاب الصليبي/ المسيحي، التنظيمات المسلحة، الحركات الجهادية، حملات التكفير الإسلامية، الحملات الصليبية... وغيرها[١].

١) رشيد العالم: من أشكال التطرف الغربي والعربي، الحوار المتمدن، ٢٠١٤، تم الدخول ١٢/ ٢/ ٢٠١٦.
- http://m.ahewar.org/s.asp?aid=411842

والتعصب المذهبي لغة : التعصب: من العصبية، وهي أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين[١]. وعرفه صاحب القاموس الفقهي بأنه : «المحاماة والمدافعة».

والمذهبي: نسبة إلى المذهب، وهو المعتقد الذي يُذهب إليه.

والتعصب المذهبي اصطلاحًا: المُغالاة في الانتصار للرأي الفقهي أو للمذهب الفقهي دون دليل[٢].

وقد كان من أبرزِ الظواهرِ التي ظهرت في الدور التشريعي الخامس وما تلاه إلى يومنا والذي يسميه بعض العلماء بعصر التقليد والجمود والاسترخاءِ (الركود) ظهور التعصبِ المذهبي، حيث تعصب طلاب العلم لآثار أساتذتهم من الأئمةِ المجتهدين الذين أناروا الدنيا بعلمهم وكشفوا ظلماتِ المسائل بنور عقولهم الساطع[٣].

وقد لخص «حسن الجوجو» مظاهر التعصب المذهبي الذي ساد من منتصفِ القرنِ الرابع؛ أي سقوط بغداد في أيدي التتار في منتصف القرن الرابع وما تلاه كالآتي[٤]:

١ – الانتصار للمذهب ولو كان مخالف دليلاً من الكتاب أو السنة: حيث عكف المقلدون الذين جاءوا بعد الأئمة على دراسة مذاهبهم ونشرها فقط بدلاً من السير على منهاجها، والاجتهادِ كما اجتهد السابقون، حيث كان الخلافُ بين طلبة العلم من المتعصبين للمذاهب الفقهية مقصودًا لذاته، ولم يكن الهدفُ منه كشفُ الحق وإجلاء الحقيقة كما فعل الأئمة المجتهدون حيث إذا وقف أحدهم على صحيح من الكتاب والسنة يدع رأيه ويتحول إلى الصواب في هذه المسألة وكان شعارهم إذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا رأيتم في كتاب الله وسنة رسوله خلاف ما أقول فاضربوا به عرض الحائط وخذوا بكتاب الله ورسوله.

ولهذا فرَّق بعض الفقهاء بين الخلاف والاختلاف؛ فالخلاف يكون فيما هو مذموم ويؤدي إلى النزاع والمشاحنة، أما الاختلاف فهو محمود، ويُعد رحمة للناس لتيسير الأمور عليهم. وبالجملة، فإن الاختلاف الفقهي شجرة طيبة أصلها وفروعها متعددة تنمو وتمتد، أصوله البحر الزاخر من أصول التشريع من النصوص، وما أخذ منها من القواعد التي عرفت فيما بعد بطرائق الأئمة في الاستنباط،

١) ابن منظور: لسان اللسان، تهذيب لسان العرب، ج٢، إشراف: على مهنا، القاهرة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، مادة (عصب)، ص ١٨٠.

٢) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، الجزء الأول، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٧، ص ص ٧:٨.

٣) حسن الجوجو: المرجع السابق، ص ١٠٤٥.

٤) نفسه، ص ص ١٠٤٥:١٠٤٦.

وكيفية تخريج الفروع الفقهية على أصولها، من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلى عصر الأئمة وإلى كل العصور ولهذا كان الاجتهاد (بذل الوسع في استنباط الحكم الشرعي من الأدلة التفصيلية).

٢- التباغض والتفرق: حيث أدى التعصب المذهبي الذي ساد إلى التباغض والتفرق والعداوة لدرجة أن الواحد فيهم كان لا يصلي خلف من يخالفه في المذهب الفقهي، وكان الحنفي لا يتزوج بالشافعية، والشافعية لا تتزوج الحنفي، وقد طالب بع ض المتعصبين في نهاية القرن الثالث عشر الهجري إلى تقسيم المساجد بين الحنفية والشافعية لشدة الخلاف والتعصب المذهبي في ذلك الوقت.

٣- ظهور الفتاوى المنكرة: حيث كان كلُ فريق من المتعصبين لمذهبهم يصدر فتاوى منكرة ضد المذاهب الأخرى ما أنزل الله بها من سلطان، وليس لها أصل في الدين.

٤- المناظراتُ المذهبية: وقد كثرت المناظراتُ المذهبية والجدلُ المذهبي كمظهرٍ من مظاهر التعصب المذهبي ولم يكن هدُفها الوصول إلى الحق وكشفَ الحقيقة، إنما هدُفها هدم ما عند الغير من حجج وبراهين وكانت الأهواء، والعصبية، وإظهار الغلبة وراء ذلك الجدل، وانعكس ذلك على الكتب التي أُلفت، فكثرت الخلافات بين المذاهب.

مما سبق، يتضح لماذا حثَّنا الإسلام على الاعتدال وعدم التطرف، لذلك حذرنا من التفريط في الدين وذلك بالتسيّب والإهمال وإتباع الأهواء فقال سبحانه وتعالى: ﴿**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ**﴾ [البقرة:٦٣]. أي: بجد واجتهاد، وقال: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً**﴾ [مريم:٥٩].

وقال الإمام الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل):»إنّ الأساس في ضلال الفرق هو البعد عن الاعتدال؛ إما بالإفراط وإما بالتفريط»، والغلو من الإفراط والتسيّب من التفريط. وكلا الإفراط والتفريط يدخل في باب التطرف، لأن الإفراط: تطرف بالزيادة، والتفريط: تطرف بالتنقيص، ولكن الناس قد اصطلحوا بكلمة التطرف على الإفراط، ومع ذلك لابد لنا من البيان أنّ هناك علاقة دائماً بين الإفراط والتفريط لأن كلا منهما يؤدي إلى الآخر[١].

٢- التطرف الفكري الإيديولوجي والفلسفي (تمجيد العقل- تجميد/ تحجير دور العقل)

إن المقصود بالتطرف الفكري الأيديولوجي في هذا الإطار؛ هو التطرف الفكري أو العقلي، وإن كان الناس قد اختلفوا حول مصدر المعرفة؛ أهو العقل أم الحس أم الحدس؟، إلا أن العديد من

١) كمال المويل: المرجع السابق.

المذاهب قد اتخذت مواقف شتى تجاه العقل؛ فقد اتخذ أنصار المذهب العقلي أو العقليون من العقل ديدنهم، بالإضافة إلى تقديمهم وتقديسهم للعقل أو أنهم أهل عقل وحكمة ومن عداهم ليس لديه اهتمام بالعقل ويقصدون بذلك أصحاب الاتجاه السلفي تحديدًا وتعاملوا مع العقل بالطريقة المنحرفة التي تعامل بها أهل البدعة عمومًا والمعتزلة على وجه الخصوص. بل وغالوا فيه إلى مرحلة التطرف.

والمذهب العقلي أوسع المذاهب في مصادر المعرفة، وله مركز الثقل بينها[1]:

- فقد كان هو المنازع من قبل أتباع المذاهب الأخرى، إشراقية، ونقلية، وحسية.

- كما أن تلك المذاهب مع قولها بتلك المصادر لم تستطع الاستغناء عن العقل تمامًا، فقالت بت بوجه من الوجوه.

وفي الوقت نفسه، أخذ أنصار المذهب اللاعقلاني موقفًا مضادًا للعقل، وهم يميلون إلى الأخذ بظاهر النص خاصة فيما يتعلق بالأمور الدينية دون تأويل أو تغيير، وهذه نزعة متطرفة أيضًا.

وفيما يتعلق بعلاقة الدين بالعقل؛ قال العقليون بالقطيعة التامة بين الدين والعقل، وأن العقل يُقدم على النص، في حين ذهب أنصار الاتجاه الآخر إلى تقديم النص على العقل ورفض دور العقل تمامًا في المسائل الدينية.

وجاء الإسلام ضد تطرف هذين الاتجاهين السابقين، فمما لا شك فيه، أن الإسلام (القرآن والسنة)- وليس إسلام المتأسلمين الذين لا يعرفون عن الإسلام إلا اسمه وعن القرآن إلا رسمه فألغوا دور العقل جملة وتفصيلاً- هو بحق دين العقل والحكمة؛ أليس الله القائل: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [سورة البقرة: ١٢٩]، وكذلك ﴿**أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**﴾ [سورة يس: ١٦٢]، وقوله تعالى ﴿**انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**([سورة الأنعام: ٦٥]، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيرا**﴾ [سورة البقرة:٢٦٩]، وغيرها الكثير والكثير.

بالإضافة إلى الأحاديث الكثيرة التي تحث على الحكمة والعقل، وفي ذلك يقول الرسول(ﷺ): «مَا اكْتَسَبَ رَجُلٌ مِثْلَ فَضْلِ عَقْلٍ يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَى هُدًى، وَيَرُدُّهُ عَنْ رَدًى، وَمَا تَمَّ إِيمَانُ عَبْدٍ، وَلاَ اسْتَقَامَ دِينُهُ حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ»[2]. ناهيك عن دعوات الإسلام لاستعمال العقل في القياس، والاستنباط، والاستدلال، والاجتهاد، والفقه، ومعرفة علم مقاصد الشريعة.

---

١) عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، دراسة نقدية في ضوء الإسلام، تقديم، عمر بن عودة بن عبد الله الخطيب، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة المؤيد، ١٩٩٢، ص٣٠١.

٢) أخرجه ابن المجبر في العقل وعنه الحارث بن أبي أسامة.

بيد أن، المشكل هو كيف نخرج بالإنسانية من دين الشعائر إلى دين العقل؟ من دين تاريخي خاص بشعب دون آخر، إلى دين عقلي هو كوني لكل الشعوب؟ ربما يحمل كل شخص دينين في قلبه، أحدهما عقلي والآخر طقوسي. دين يحكيه وآخر يفكر فيه. وإن أحد رهانات الفلسفة هو أن تجعل الدين الذي يُحكى إلى الأطفال قابلاً للتحول إلى مفهومات خُلُقية في عقولهم، بالتالي قابلاً للفهم. لذلك علينا أن نميز بين إيمان دُغمائي يُقدم نفسه بوصفه علمًا جازمًا متكبرًا متغطرسًا على غير العالمين، وبين إيمان مُتفكِّر يخجل من الانزلاق في أي نوع من الأفكار المفارقة التي تتخطى حدود عقولنا [1].

وفي خِضَم، إجابتنا عن الكيفية التي يتم فيها التوفيق بين الدين والفلسفة، يمكننا القول: إنه يمكننا الخروج من مأزق عدم التوفيق إلى نور التوفيق بينهما، إذا ما آمنا بقيمة العقل وأهميته في الدين، إلى جانب الإقرار بمحدوديته، كما قال بذلك «كانط»، لأنه الإنسان مخلوق ناقص بالنسبة للكمال الإلهي، ولو كنا بالعقل نعرف كل شيء وندرك كنه الحقائق الدينية والدنيوية، لما أرسل الله إلينا الرسل بالوحي. وإنما بسبب قصره وعجزه جاء الوحي ليرشده ويهديه.

وإذا قلنا: من الذي أودع فينا العقل؟ أليس الله؟ ومنْ مصدر الدين؟ أليس الله؟ إذا كان الاثنان مصدرهما واحد وهو الله سبحانه وتعالى فكيف لهما أن يكونا متضادان ومتصارعان!!! وعلى هذا، فللعقل النظري أن يُطلق العنان في التفكر، والتدبر، والإبداع، والإنتاج، دون الخروج عن معية العقل الشرعي. مع الأخذ في الاعتبار، أن العقل البشري في حاجة إلى ضوابط-غير ضوابطه الذاتية- تمنعه من الانحراف مع أصحاب الأهواء، ضوابط من مصدر أعلى منه وأحكم، وأعلم بحقائق الأمور[2].

٣- التطرف الفكري السياسي (الديكتاتوري- الفوضوي)

لقد ظهرت على المستوى السياسي أنظمة متعددة؛ كالنظام الديمقراطي والليبرالي، والاشتراكي، والعلماني والأرستقراطي والثيوقراطي.....الخ، وقد حملت معظمها بين طياتها عوامل انهيارها لما تميزت به من نزعات متطرفة إلى أقصى اليمين أو إلى أقصى اليسار.

ولعل أبرز نظامين متطرفين في هذا الشأن؛ الحكم المطلق المستبد والذي منه ينبع الطغيان والاستبداد والديكتاتورية، والحكم النسبي والذي تخرج من رحمه الفوضوية المفرطة، وكلاهما يحمل فكرًا متطرفًا.

---

١) فتحي المسكيني: كانط: دين العقل الكوني أو كيف يكون إيمان الأحرار، مقدمة الترجمة العربية، إيمانويل كانط: الدين في حدود مجرد العقل، الطبعة الأولى، بيروت، جداول للنشر والتوزيع، ٢٠١٢، ص ص، ١٥،١٨.

٢) محمد قطب: مغالطات، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٦، ص ٥٨.

فبالنسبة للنظام الأول، فيمكننا أن نأخذ منه نموذج الاستبداد كمثال؛ فمصطلح استبداد في عالم السياسة يطلق على نمط من أنماط الحكم المطلق الذي تكون فيه سلطة الرئيس أو الملك على رعاياه كسلطة الأب على أبنائه في الأسرة، وهنا يصبح المعنى انفراد فرد أو مجموعة من الأفراد بالحكم أو السلطة المطلقة دون الخضوع لقانون أو قاعدة، ودون النظر إلى رأي المحكومين، وهذه السلطة المستبدة التي يتأثر بها الفرد أو بعض الأفراد هي تلك التي تمارس الحكم دون أن تكون هي ذاتها خاضعة للقانون الذي تمارسه على الشعب.

وقد شاع في القرن التاسع عشر البحث عند مفكري النهضة العربية بمعنى الاستبداد وطبائعه؛ فقد جاء عند «الإمام محمد عبده» التعريف التالي:»المستبد عُرفًا من يفعل ما يشاء غير مسئول، ويحكم بما يقضي بت هواه، وافق الشرع أو خالفه، ناسب السنة أو نابذها، ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو ما يضارعه صرفوه إلى هذا المعنى ونفروا من ذكره لعظم مصابهم منه، وكثرة ما جلب على الأمم والشعوب من أضرار[١].

وقد عرف مفهوم الاستبداد تطورًا عبر الزمان والمكان ليصبح صفة من صفات الحكم المطلق المشوب بالظلم والتسلط، الذي لا يراعي فيه القائمون عليه وازعًا أخلاقيًا أو قيودًا قانونية، وذلك حين يتبع المستبد أهواءه الخاصة بدلاً من تحكيم مقتضيات المصلحة العامة. ويعرف أحد الباحثين الاستبداد بقوله: «ويستعمل مصطلح الاستبدادية لوصف درجة تسلط الحاكم، فإذا كان الحاكم لا يلتزم بقانون، وإنما قوله وفعله هما بمثابة القانون فهو نظام حكم استبدادي. أما إذا كان هناك قانون يلتزم به الحاكم ولكنه يحتكر سلطة التعديل والتغيير في القانون فهو إذًا حكم مطلق»[٢].

أما النظام الآخر؛ فهو نظام الفوضوية، والفوضوية: هي تصور سياسي يرمي إلى إلغاء الدولة واستبعاد كل سلطة من داخل المجتمع تملك حقًا قسريًا على الفرد. إنها حركة أفكار وممارسة تطرح كل قسر خارجي على الإنسان وترمي إلى بناء حياة مشتركة على أساس الإرادة الفردية المستقلة. وبهذا ترفض الفوضوية فكرة السلطة لأنها مناقضة للحرية الفردية وترى أن النظام والعدل يجب أن يرتكزا إلى عقد حر يبرمه المعنيون فيما بينهم ويراعون بنوده وأحكامه بحرية[٣].

---

١) عبد الوهاب الكيالي (وآخرون): موسوعة السياسة، الجزء الأول، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص ص ١٦٦:١٦٧.

٢) حمد الرياحي الإدريسي: الاستبداد أصل الداء، تم الدخول:١٢/ ٣/ ٢٠١٦.
- http://www.aljamaa.net/ar/document/52778.shtml

٣) عبد الوهاب الكيالي (وآخرون): موسوعة السياسة، الجزء الرابع، ص ص ٦٣١:٦٣٢.

أما الإسلام فقد أظهر مساوئ كلا النظامين السابقين الاستبدادي والفوضوي، وجاء بنظام حكم وسطي معتدل، فكان قوام نظام الحكم في الإسلام العدل والشورى اللذان يتمثلان في طاعة الله وطاعة ولي الأمر أو الحاكم، في الوقت نفسه الذي حذَّر فيه الحاكم من الاستبداد والديكتاتورية وظلم الرعية.

٤- التطرف الفكري الاقتصادي (الرأسمالي- الاشتراكي):

بالنسبة للتطرف الفكري في المجال الاقتصادي فقد ظهرت أنظمة متعددة متناحرة، يكون بعضها متطرفًا إلى أقصى اليمين، وبعضها الآخر متطرفًا إلى أقصى اليسار، وبينهما أنظمة أخرى. ولعل أبرز الأنظمة الاقتصادية تطرفًا: النظام الرأسمالي، والنظام الاشتراكي.

فالرأسمالية نظام اجتماعي اقتصادي تُطلق فيه حرية الفرد في المجتمع السياسي، للبحث وراء مصالحه الاقتصادية والمالية بهدف تحقيق أكبر ربح شخصي ممكن، وبوسائل مختلفة تتعارض في الغالب مع مصلحة الغالبية الساحقة في المجتمع...

وبمعنى آخر : إن الفرد في ظل النظام الرأسمالي يتمتع بقدر وافر من الحرية في اختيار ما يراه مناسباً من الأعمال الاقتصادية الاستثمارية وبالطريقة التي يحددها من أجل تأمين رغباته وإرضاء جشعه، لهذا ارتبط النظام الرأسمالي بالحرية الاقتصادية أو ما يعرف بالنظام الاقتصادي الحر، وأحيانًا يخلي الميدان نهائيًا لتنافس الأفراد وتكالبهم على جمع الثروات عن طريق سوء استعمال الحرية التي أباحها النظام الرأسمالي.

كما أنها نظام اقتصادي يتميز بنمط من الإنتاج يرتكز على تقسيم المجتمع إلى طبقتين أساسيتين: طبقة مالكي وسائل الإنتاج (الأرض، المواد الأولية، آلات وأدوات العمل)- سواء كانت مكونة من أفراد أو شركات أو مؤسسات- الذين يشترون قوة العمل لتشغيل مشروعاتهم. وطبقة البروليتاريا المجبرة على بيع قوة عملها لأن ليس لأفرادها وسائل الإنتاج ولا رأس المال الذي يتيح لهم العمل لحسابهم الخاص. وإلى جانب هاتين الطبقتين الأساسيتين هناك طبقات اجتماعية أخرى من ضمن إطار الرأسمالية... وهم صغار الحرفيين، وصغار الفلاحين، وصغار التجار[١].

والنظام الآخر الأكثر تطرفًا هو النظام الاشتراكي، والاشتراكية: «عبارة عن مجموعة متكاملة من المفاهيم والمناهج تهدف إلى القضاء على النظام الرأسمالي، وإقامة مجتمع أكثر عدالة وكفاية في تحقيق المساواة بين الأفراد والإخاء بين الأمم أيضًا، ويمكن تناول الاشتراكية من ثلاثة عناصر[٢]:

١) عبد الوهاب الكيالي (وآخرون): موسوعة السياسة، الجزء الثاني، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص٧٨٨.
٢) نفسه، ص١٩٧.

١ – العنصر الاقتصادي: إذ يرى الاشتراكيون أن أهم الأسباب المُحركة للمجتمعات والناس هو نوع العلاقات الاقتصادية مثل: الربح، والتناسب في الأجور، وتوزيع خيرات المجمع وأن أهم وسيلة لتحقيق الفائدة يتمثل في نقل ملكية وسائل الإنتاج إلى ملكية الدولة وتسمى بالتأميم.

٢ – العنصر الفلسفي: وينطلق الاشتراكيون من هذا العنصر بأن المجتمعات الحالية هي مجتمعات ظالمة ولابد من تغييرها. وأن الحياة تقوم على أساس صراع المتناقضات وتنشأ هذه المتناقضات في ظروف موضوعية مجردة من النية والإرادة.

٣– العنصر النضالي وهنا يرى الاشتراكيون أن النضال اليومي هو أساس التغيير الثوري الاشتراكي.

والدولة الاشتراكية هي الأداة التي يقوم بواسطتها الشعب العامل بإدارة الإنتاج الاجتماعي لصالح المجتمع بأسره– وتسيطر الدولة– كممثل للشعب بأسره على كل القطاع الاشتراكي المملوك للمجتمع بأسره. والدولة الاشتراكية جهاز الشعب العامل بأسره، ومن هنا فإنها منذ البداية طراز جديد كلية، إنها ليست أداة حكم طبقية مستغلة تمثل الأقلية وإنما هي أداة حكم الجماهير العاملة».

٤ – تؤمن الاشتراكية العلمية: بإسقاط النظم الرأسمالية لبلوغ المجتمع الاشتراكي وتأخذ الطابع الماركسي للثورة.

مما سبق، يتضح مدى تطرف الرأسمالية من جهة، والاشتراكية، من جهة أخرى. وقد أوضح الإسلام الذي هو دين الوسطية والاعتدال عيوب ومساوئ كل منهما؛ فالرأسمالية، غالت في مراعاة الملكية الفردية وإطلاق الحريات، فسلكت بالبشرية طريقًا أبعدها عن الصراط المستقيم، وحوَّل الحياة الإنسانية إلى ما يشبه الغابة، يأكل القوي فيها الضعيف، ويسود فيها الغني ويضيع فيها الفقير[١].

ولعل من أبرز عيوب الرأسمالية وأخطائها؛ ١) أنها تقوم على أساس ربويٍّ يُحرِّمه الإسلام غاية التحريم. ٢) لا تعترف الرأسمالية بحق للفقير في مال الغني، أي ضياع فريضة الزكاة. ٣) تبيح الرأسمالية لصاحب المال التكسب بشتى الوسائل والطرق، ولا تتقيد في ذلك بشرع سماوي أو مبادئ أخلاقية. ٤) كما تُبيح الرأسمالية الاحتكار التجاري بمساوئه المتعددة وإضراره بمصالح

١) علاء بكر: مذاهب فكرية في الميزان، محاضرات في الغزو الفكري، المنصورة، مكتبة فياض للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص١٨٥.

الجماعة.٥) المغالاة في المنافسة والمزاحمة بين الأفراد والشركات بغرض الغلبة والسيطرة على الأسواق. ٦) تشجيع الدول الرأسمالية الغنية على استعمار الدول الفقيرة وإخضاعها لها سياسيًا واقتصاديًا من أجل الحصول على الخامات والمواد الأولية، كما تشجع الحروب الإقليمية[١].

أما الاشتراكية، فقد غالت في مراعاة مصالح الجماعة على حساب حريات الأفراد، فحوَّلت المجتمع إلى ما يشبه السجن الكبير، يتكلم فيه الحزب الحاكم، ويحجر على تصرفات من فيه، وليس لهؤلاء المحكومين إلا أن يعملوا ليأكلوا، ولا سبيل لهم إلى التمرد أو الاعتراض، وما كانت حياة الناس لتستقيم على ذلك. ولعل أبرز عيوب الاشتراكية هي[٢]:

١) محاربة الاشتراكية لما جُبلت عليه النفس البشرية من حب الإنسان للتملك لنفسه، وجمع المال لأسرته وأبنائه من بعده.

٢) معاداة الاشتراكية للأديان ورفضها، بدعوى أنها تُقِّر الملكية الخاصة، وتقبل وجود الفوارق بين طبقات المجتمع.

٣) إهدار الاشتراكية لمواهب الأفراد وإضاعة الاستفادة من قدراتهم في الانتاج والتكسب.

٤) سيطرة البيروقراطية المعوِّقة للعمل والإنتاج.

٥) لجوء النظم الاشتراكية إلى سياسة الكبت والقهر لفرض مبادئها.

وبعد أن عرفنا مساوئ وعيوب الرأسمالية والاشتراكية، يمكننا القول: إن النظام الاقتصادي في الإسلام قد جمع بين حرية امتلاك رأس المال دون إفراط وبين حق امتلاك الحاكم أو الدولة لبيت المال وتوزيع مصارف الزكاة على الفقراء والمساكين...الخ. وقد عرَّف الدكتور «محمد عبد الله العربي» الاقتصاد الإسلامي بأنه: «مجموعة الأصول العامة التي نستخرجها من القرآن والسنة لبناء الاقتصاد الذي نقيمه على أساس تلك الأصول حسب بيئة كل عصر»[٣]. كما عرفه الأستاذ الدكتور «شوقي الفنجري» بأنه: «مجموعة المبادئ والأصول التي جاءت بها نصوص القرآن والسنة لياتزم بها المسلمون في كل زمان ومكان»[٤].

١) علاء بكر: مذاهب فكرية في الميزان، ص ص ١٨٦: ١٩٢.
٢) نفسه، ص ص ١٩٦: ١٩٩.
٣) محمد عبد الله العربي: الاقتصاد الإسلامي في تطبيقه على المجتمع المعاصر، الكويت، مكتبة المنار، د. ت. ص ٣٨.
٤) محمد شوقي الفنجري: المذهب الاقتصادي في الإسلام، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي، مكة المكرمة، ١٩٧٦، ص ٧٦.

لقد، كان المنهج الإسلامي في الاقتصاد بحق منهجًا ربانيًا، وقد جاء المجال الاقتصادي مستنبطًا من آيات القرآن الكريم، ومن السنة النبوية الشريفة، فهو نظام بالعموم والمرونة، وعدم التغيير والتبديل؛ فأحكامه نافذة على جميع الناس، وما كان حلالاً فهو حلال أبدًا وما كان حرام فهو حرام أبدًا. كما حرَّم الإسلام كل مساوئ الرأسمالية والاشتراكية؛ من احتكار للسلع أو تعاملات ربوية...الخ[1].

٥- التطرف الفكري الاجتماعي(التحرر- الانغلاق)

في واقع الأمر، فإن التطرف الفكري لا يقتصر على الأفراد فحسب، بل قد يصل الأمر إلى أن يتطرف مجتمعًا تطرفًا فكريًا، وذلك مثلما عرضنا من قبل لتطرف المجتمع العربي قبل البعثة المحمدية، وكيف أن هذا التطرف كان قائمًا على العصبية القبلية وتقليد الآباء والأجداد، فقد تطرف العرب في عبادتهم حين عبدوا الأوثان والأصنام من دون الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا، فقد تتطرف بعض المجتمعات إلى أقصى اليمين أو تتطرف إلى أقصى اليسار، ففي عصرنا الحالي توجد بعض المجتمعات التي تدعو إلى التقوقع على ذاتها وتحث أبناءها على الانغلاق المطلق، في حين يكون على النقيض من ذلك تلك المجتمعات التي تدعو إلى التحرر المطلق في كل شيء.

وإذا أخذنا المرأة كمثال؛ نجد من يدعو إلى رفض خروجها من بيتها مطلقًا، وأن ليس لها الحق في التعليم....الخ ومن صور هذا التطرف تجاه المرأة نجد عادة حرق المرأة لنفسها وفاءً لزوجها بعد وفاته مباشرة في بعض القبائل الهندية في بلاد الهند. وعلى النقيض، نجد من يدعو إلى تحرر المرأة في كل شيء ومن ثم، فلها الحق أن تخرج من بيتها كيفما تشاء وبأي لبس شاءت.

وبين هذه النظرة وتلك جاء الإسلام ليقف موقف الوسط بين هاتين النظرتين المتطرفتين؛ فلم يحرم خروجها مطلقًا ولم يحرمها من حقها في التعليم، في الوقت نفسه الذي أمرها أن تلتزم بضوابط الشرع في جميع حياتها[2].

بهذا، نكون عرضنا لنشأة التطرف الفكري وتاريخه، وأنواعه، ولكن ما هي الأسباب التي تؤدي إلى التطرف الفكري؟ هذا ما سنتناوله في الفصل التالي.

---

١) سناء رحماني: مبادئ الاقتصاد الإسلامي وخصائصه، الجزائر، جامعة محمد بضياف المسيلة، ١٩٧٦، ص ١٥.

٢) للاستزادة عن مكانة المرأة في الإسلام انظر:

- محمد الغزالي، ومحمد سيد طنطاوي، وأحمد عمر هاشم: المرأة في الإسلام، مطبوعات أخبار اليوم، قطاع الثقافة.